لكفّار مكّة ومن شاكلهم إنّى أخاف إن عصيت ربّى جلّ وعلا عذاب يومٍ عظيم ، هو يوم القيامة . والمعروف أنّ الخوف توقّع المكروه[1] إنّ المعنى : قل إنّى أخاف عذاب يومٍ عظيمٍ إن عصيت ربّى . ولاستقامة المعنى لا يكاد يشعر المتأمّل بالتّقديم فى الآية الكريمة والتّأخير . وانظر إلى لفظة الرّبّ فى القول : ﴿ إن عصيت ربّى ﴾ ذات العلاقة بتربية الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء ووجوب القيام بالشّكر لله تعالى عليها . وإنّ جملة : ﴿ عصيت ﴾ ذات المعانى غير المتّوقع حدوثها من العبد فى مقابل نعم الله تعالى عليه تجعل معاني لفظ الرّبّ أشدّ وضوحًا . ومن البيّن ارتباط الآية الكريمة الشّديد بالتّرهيب وارتباط الآية الكريمة الأخرى الشّديد بالتّرغيب .

إنّ الآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ من يصرف عنه عذاب ذلك اليوم العظيم يوم القيامة فقد رحمه الله تعالى الّذى وسعت رحمته كلّ شيء . وانظر إلى مجيء جملة : ﴿ فقد رحمه ﴾ فى صيغة المبنى للمعلوم إثر مجيء جملة : ﴿ من يُصْرَف عنه ﴾ فى صيغة المبنى للمجهول . إن من يُصْرَف عنه العذابُ يوم القيامة فقد رحمه الله تعالى الّذى وسعت رحمته كلّ شيء . وإنّ صيغة المبنى للمعلوم تجعل الرّحمة ألطف وقعًا فى ذلك اليوم المهيب المجموع له النّاس المشهود ، بعد صرف العذاب عن ذلك الّذى وسعته رحمة الله تعالى ، وبعد زحزحته عن النّار وقد قال تعالى[2] : ﴿ فمن زُحْزِح عن النّار وأُدْخل الجنّة فقد فاز ﴾ وقد جاء فى أولى آيات هذا القسم قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ على نفسه الرّحمة ﴾ .

وفى القول : ﴿ وذلك الفوز العظيم ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ الفوز المبين حقّاً يوم القيامة والنّجاح العظيم يقينًا فى صَرْف الله تعالى العذاب عن عبده ، لأنّ ذلك يعنى أنّ الله سبحانه وتعالى ، الّذى وسعت رحمته كلّ شيء ، قد رحمه . وينبغى أن يكون لحرف التّحقيق ﴿ قد ﴾ من القول : ﴿ من يُصَرْف عنه يومئذٍ فقد رحمه ﴾ دورٌ فى صرف العذاب برحمة البّر الرّحيم جلّ وعلا .

---

(١) انظر تفسير القرطبيّ ٢٣٩٤ والبحر المحيط ٨٦/٤ . (٢) سورة آل عمران ١٨٥ .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تشير إلى قدرة الله تعالى المطلقة يوم الدّين فإنّ الآية الكريمة التّالية تشير إلى هذه القدرة المطلقة فى الحياة الأولى ، فإلى .

الآيـــة رقم (١٧)

قال تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضُرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو . وإن يمسسك بخيرٍ فهو على كلّ شيء قدير ﴾ .

يتّجه الخطاب إلى المصطفى ﷺ ابتداءً وإلى كلّ فردٍ من أفراد الأمّـة الإسلاميّة ، بل كلّ فردٍ على الإطلاق ، انتهاءً . وإنّ الآية الكريمة لتقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى إن يمسس الإنسان بضرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو جلّ وعلا ، وإنّ يمسس الإنسان بخيرٍ فالله سبحانه وتعالى على كلّ شيء قدير . وممّا يلفت النّظر فى الآيـة الكريمة مجىء الضّرّ مقابلاً للخير وليس الشّرّ ومجىء الخير مقابلاً للضّرّ وليس النّفع ، إذ المعروف أنّ الضّرّ يقابله النّفع وأنّ الخير يقابله الشّرّ . والمعروف أنّ الشّرّ أعمّ من الضّرّ وأنّ الخير أعمّ من النّفع . والحقيقة أنّ ثمّة العديد من الفوائد الّتى يمكن أن تستفاد من لفظتي الضّرّ والخير . إنّ الضرُّ حينما يكون أهون من الشّرّ نستطيع أن نتبيّن من مجىء لفظة الضّرّ فى الآية الكريمة مظهرًا من مظاهر رحمة البرّ الرّحيم بعباده . إنّ القول : ﴿ وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو ﴾ رغم أنّه يجىء فى معرض ابتلاء الله تعالى عباده بالضّرّاء من مرضٍ وفقرٍ وما إليهما فإنّ العدول إلى استعمال لفظ الضّرّ عن استعمال لفظ الشّرّ يفيد أنّ الضّر شيء آخر غير الشّرّ تمامًا . إنّ الشّرّ إذا كان يرتبط به الأذى غالبًا فإنّ الضّرّ يرتبط به فى حقّ المؤمن النّفع غالبًا بل الخير لأنّ المؤمن مأمورٌ بالصّبْر ومأجورٌ عليه ، ومن أنواع الصّبر الثّلاثة الصّبر على الضّرّ ، أما النّوعان الآخران فهما الصّبر عن المعاصى والصّبر على الطّاعة . فى صحيح مسلم عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عبدٍ

تصيبه مصيبةٌ فيقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، اللهمّ أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرًا منها ، إلاّ آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيرًا منها ، قالت : فلمّا توفّى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيرًا منه ، رسول الله ﷺ(١) .

فإذا تحوّلنا إلى لفظ الخير تبيّنا أنّه هو الّذى يجىء وليس لفظ النّفع رغم أنّ لفظ النّفع هو الّذى يقابل الضّرّ . وكما كان الضّرّ أخصّ من الشّرّ فى مجال الضّراء كان الخير أعمّ من النّفع فى مجال النّعماء ، وهكذا تتجلّى رحمة الله تعالى الواسعة التّى شملت عبده فى حال الابتلاء بالضّرّاء ، والابتلاء بالنّعماء ، بحيث إنّ أهون اللّفظين فى الدّلالة على الشّرّ يستعمل فى حال الضّرّاء ، وأبلغ اللّفظين فى الدّلالة على الخير يستعمل فى حال السّرّاء .

وإنّ رحمة الله تعالى تتجلّى أيضًا فى استعمال جملة ﴿ يمسسك ﴾ بشأن الضّرّ فى المقام الأوّل لأنّ المسّ كاللّمس(٢) فى الأساس ، وحقيقة المسّ تلاقى جسمين(٣) وكأنّ كلاً من المسّ واللمسّ يمثّل مرحلة هيّنةً من مراحل التّلاقى بين الأجسام فى المحسوسات أوّلاً ، وفى المعنويّات آخرًا . والمسّ يقال فيما يكون معه إدراك بحاسّة اللّمس(٤) واللّمس إدراكٌ بظاهر البشرة كالمسّ(٥) وحينما يجىء المسّ بالمعنى الّذى إليه أومأنا فى مجال الابتلاء بالضّرّاء فى القول : ﴿ وإن يمسسك الله بضُرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو ﴾ يكون المسّ مظهرًا من مظاهر رحمة البرّ الرّحيم بعباده حال ابتلائه جلّ وعلا عباده بالضّرّاء .

وإنّ النّصّ على كشف البرّ الرّحيم الضّرّ عن عبده مظهرٌ من مظاهر رحمة البرّ الرّحيم بعبده ، لأنّ الإشارة إلى كشف الضّرّ تطرد اليأس عن العبد الّذى مسّه الضّرّ ،

---

(١) تفسير ابن كثير ١٩٨/١ . (٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « مسس » ٤٦٧ .
(٣) انظر مثلاً البحر المحيط ٨٧/٤ . (٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « مسس » ٤٦٧ .
(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « لمس » ٤٥٤ .

ولأنّ النّصّ على أنّ الضّرّ لا يكشفه إلاّ الله تعالى يجعل العبد متّجهًا إلى بارئه جلّ وعلا . إنّ كلّ هذه المعانى أو الفوائد من مظاهر رحمة الله تعالى بعبده فى الأولى إثر الحديث فى الآية الكريمة السّابقة عن رحمة الله تعالى عبده فى الآخرة .

وإذا كان المسّ يستعمل مع الابتلاء بالضّرّ فإنّ المسّ يستعمل كذلك مع الابتلاء بالخير . قال تعالى : ﴿ وإن يمسسك بخيرٍ فهو على كلّ شيءٍ قدير ﴾ .

والحقيقة أنّ المسّ مع الخير والمسّ مع الضّرّ كذلك يذكّرنا كلٌّ بهذه الآية الكريمة من سورة يونس[1] قال تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضُرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو. وإن يردك بخيرٍ فلا رادّ لفضله . يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرّحيم ﴾.

ومن البيّن استعمال المسّ مع الضّرّ ممّا يؤكّد معنى الرّحمة الّذى فهمناه من استعمال المسّ مع الضّرّ فى آية سورة الأنعام . ومن البّين التّشابه التّامّ بين الجزئيّتين فى الآيتين الكريمتين بشأن الضّرّ . وإنّ استعمال جملة : ﴿ يردك ﴾ بشأن الخير ممّا يقوّى معنى الرّحمة الّذى فهمناه من استعمال المسّ مع الخير فى آية سورة الأنعام ، بحيث إنّا نستطيع أن نفهم أنّ المسّ بشأن الخير فى آية سورة الأنعام يرقى فى مجال القوّة إلى معنى الإرادة فى آية سورة يونس . ووراء ذلك فنحن نتبيّن استقرار كلٍّ من مسّ الخير وإرادة الخير فى موضعيهما فى الآيتين الكريمتين . إنّ مسّ الضّرّ ومسّ الخير ينساب فى آية سورة الأنعام انسياب المعنى فى الآية الكريمة دون الظّهور الواضح لدور البَشَر فى ردّ الخير أو صرفه : ﴿ وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو إن يمسسك بخيرٍ فهو على كلّ شيء قدير ﴾ وإنّ إرادة الخير الّتى أشارت إليها آية سورة يونس كأنّها تدفع محاولة ردّ الفضل من الله تعالى عن عبده والعمل على صرف الخير من قِبَلِ بعض عباد الله تعالى عمّن أراد الله تعالى له أن يختصّه به .

وإنّ ممّا يقوّى معنى المسّ بالخير فى آية سورة الأنعام ويرفعه من مستوى المسّ بالضّر فى الآيتين الكريمتين من الأنعام ويونس إلى مستوى إرادة الخير كما جاء فى

---

(١) الآية ١٠٧ .

آية سورة يونس النّصّ فى آية سورة الأنعام على قدرة الله تعالى على كلّ شيء . قال تعالى : ﴿ وإن يمسسك بخيرٍ فهو على كلّ شيء قدير ﴾ وإنّ النّصّ فى الآية الكريمة على القدرة المطلقة للفعّال لما يريد موطّئ للحديث فى الآية الكريمة التّالية عن الواحد القهّار الحكيم الخبير فإلى .

الآيـــــة رقم (١٨)

قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم فى كلّ أقواله وأفعاله وتدبيراته ، وهو الخبير العليم ببواطن الأمور كظواهرها . والمعروف أنّ القهر فوق القدرة[١] الّتى أشارت إليها الآية الكريمة السّابقة . فالقهر الغلبة ، والقاهر الغالب[٢] والقهر الغلبة والتّذليل معًا[٣] ففى القهر معنىً زائدٌ ليس فى القدرة ، وهو منع غيره عن بلوغ المراد[٤] .

ومن البّين أنّ الآية الكريمة لا يجيء فيها مَثَلاً القول : وهو القاهر عباده ، ولكن يجيء فيها القول : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ والمعروف أنّ فوق الّتى تفيد الاستعلاء المكانيّ أساسًا هي تفيد هنا الاستعلاء المعنوي[٥] فالله سبحانه وتعالى هو القادر الغالب القاهر فوق عباده الّذى يقسرهم ويجبرهم على ما يريده هو تعالى[٦] وانظر إلى اللّفظ العجيب ﴿ عباد ﴾ من القول : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ القادر من ناحيةٍ على إعطاء القهر والفوقيّة الشّيء الكثير من معاني الرّحمة ، والقادر

---

(١) انظر مثلاً تفسير القرطبيّ ٢٣٩٦ وتفسير ابن عطيّة ١٤٧/٥ .
(٢) تفسير القرطبيّ ٢٣٩٦ . (٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « قهر » ٤١٤ .
(٤) تفسير القرطبيّ ٢٣٩٦ .
(٥) انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ١٤٧/٥ وتفسير القرطبيّ ٢٣٩٦ والبحر المحيط ٨٨/٤ .
(٦) انظر البحر المحيط ٨٨/٤ .

من ناحيةٍ أخرى ، بسبب هذه القدرة فى مجال الرّحمة على القيام بدور الموطّئ لمجىء كلٍّ من لفظتيّ الحكيم والخبير . وفى سبيل تبيين قدرة لفظ العباد على القيام بهذا الدّور العظيم لنصغ إلى ما يقول ابن عطيّة فى تفسيره[1] : « والعباد بمعنى العبيد ، وهما جمعان للعبد ، أما إنّا نجد ورود لفظة : العباد ، فى القرآن وغيره فى مواضع تفخيم أو ترفيع أو كرامة ، وورود لفظة : العبيد ، فى تحقير أو استضعاف أو قصد ذمّ » .

وهكذا يتبيّن الدّور العظيم للفظ العباد فى إظهار القهر على حقيقته المشتملة على الحقّ والخير والعدل وكذلك فى التّمهيد لمجىء لفظتي الحكيم والخبير . والحقيقة أنّ المعاني فى الاية الكريمة تتتابع فى هيئة الأمواج أو فى هيئة الوهاد والنّجاد . وتفسير ذلك أنّ القول : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ يتضمّن نجدًا وتهامة . إنّه قولٌ يشير إلى القهر الرّفيع السّنا والسّناء من الذّات العليّة ، وإلى وقوع هذا القهر على العباد . كما أنّ هذا القول : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ يتضمّن نعتين للذّات العليّة أو اسمين من أسماء الذّات العليّة الحُسْنَى . وإنّ أوّل الاسمين : ﴿ الحكيم ﴾ يتعلّق بذلك النّوع من القهر الصّادر من الذّات العليّة ، وإنّ آخر الاسمين : ﴿ الخبير ﴾ يتعلّق بحقيقة العلم ببواطن أمور العباد . إنّ الاسم : ﴿ الحكيم ﴾ يشير إلى حكمة البرّ الرّحيم بعباده العزيز القهّار ، وإنّ الحكمة يتحلّى بها ذلك القهر على العباد . وإنّ الاسم : ﴿ الخبير ﴾ يشير إلى أنّ حقيقة تلك الحكمة لا يعلمها إلاّ الله تعالى ، العليم الّذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السّماء ، الخبير الّذى لا يخفى عليه بواطن الأمور ، ولا دفائن النفوس ، ولا دخائل الصّدور . إنّ الله سبحانه وتعالى هو العليم الخبير ، وهو الحكيم الخبير ، فكلّ ما يجرى فى هذا الكون يتمّ بإرادة الله تعالى الحكيم الّذى يخضع كلّ شيء لحكمته ، الخبير الّذى أحاط خُبْرًا ببواطن الأمور كظاهرها ، سبحانه وتعالى .

---

(١) ٥/١٤٨ .

وهكذا يتبيّن علاقة الاسم : ﴿ الحكيم ﴾ بصفة القهر المستعلية ، فحكمة الله تعالى تحكمها ، كما يتبيّن علاقة الاسم : ﴿ الخبير ﴾ بصفة الخبرة بمعنى العلم ببواطن أمور العباد كظاهرها . وهكذا تتضّح أمواج المعانى المتلاحقة ، أو النّجاد والوهاد المتتابعة .

وحينما نتأمّل الآية الكريمة التّالية نتبيّن أنّها ذات علاقةٍ جدّ وثيقةٍ بصفتي .

﴿ الحكيم ﴾ و ﴿ الخبير ﴾ فالحكيم هو الّذى اصطفى محمّد بن عبد الله ﷺ بشرف الرّسالة ونعمة ختم النّبوّة وبإنزال القرآن الكريم عليه ، والخبير الّذى لا إله إلا هو هو الّذى يشهد بأنّ محمّد بن عبد الله ﷺ رسول ربّ العالمين إلى النّاس كافّة وفيهم كفّار مكّة ، وبأنّ القرآن الكريم كلام ربّ العالمين نزل به الرّوح الأمين جبريل عليه السّلام على قلب خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين ، محمّد بن عبد الله ﷺ ، فإلى .

الآيـــــة رقم (١٩)

قال تعالى : ﴿ قُلْ أيُّ شيء أكْبَرُ شهادة . قل الله شهيدٌ بينى وبينكم . وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغ . أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى . قل لا أشهد . قل إنّما هو إلهٌ واحدٌ وإنّنى بريءٌ ممّا تشركون ﴾ .

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ أن يسأل كفّار مكّة : ﴿ أيّ شيء أكبر شهادةً ﴾ وأعظم ؟ ومن البيّن أنّ الله سبحانه وتعالى أكبر شهادةً من كلّ شاهد وأعظم ، لهذا تبادر الآية الكريمة إلى تلقين المصطفى ﷺ الجواب ، وذلك فى أمره عليه الصّلاة والسّلام فى القول : ﴿ قل الله ﴾ ومن البيّن أنّ الحديث عن الشّهادة وعن الأكبر شهادة إنّما يدور حول الخلاف بين المصطفى ﷺ رسول ربّ العالمين ، وبين كفّار مكّة فى المقام الأوّل ، الّذين ينكرون أن يكون المصطفى ﷺ رسول ربّ العالمين . من أجل ذلك كان الحديث عن الحقّ جلّ وعلا الأكبر شهادةً

موصولاً بتقرير شهادة الحقّ جلّ وعلا بين المصطفى ﷺ وبين المشركين فى هذه القضيّة . وبهذا يضيف الجواب الجديد من المعانى : ﴿ قل الله شهيدٌ بينى وبينكم ﴾ ومن البّين أنّ الجزئيّة الكريمة يجىء فيها لفظ ﴿ شهيد ﴾ على وزن صيغة المبالغة : ﴿ فعيل ﴾ ولا يجىء فيها لفظ : ﴿ شاهد ﴾ على وزن صيغة اسم الفاعل : ﴿ فاعل ﴾ والمعروف أنّ صيغة فعيل أبلغ من صيغة فاعل . ومن هنا يطلق لفظ الشّهيد على الشّاهد وعلى المشاهد للشيء[1] ولا يخفى الدّور البليغ للفظ : ﴿ شهيد ﴾ فى الجزئيّة الكريمة بسبب قدرة هذا اللّفظ على التّنبيه على إحاطة الله تعالى بكلّ شيء علما . وإنّ حديث الآية الكريمة عن الشّهادة يذكّرنا بهذه الآية الكريمة من سورة النّساء[2] قال تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيدا ﴾ .

وكيف تتحقّق شهادة الله تعالى بين المصطفى ﷺ وبين كفّار مكّة ومن شاكلهم؟ وكيف تصل إلى المصطفى ﷺ وإلى المشركين ؟ بما أنّ ربّ العزّة الّذى وسعت رحمته كلّ شيء لم يلبّ طلبات كفّار مكّة ، وهي التّى يراد بها التّعنّت وليس مزيد الدّليل والحجّة ، لأنّ أكبر الآيات فى حقّهم ، وهم أئمّة البيان ، تتجلّى فى القرآن الكريم ، فقد كان ثمّة الحديث عن القرآن الكريم مع إضافة المزيد المفيد من المعاني وذلك فى القول : ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغ ﴾ .

ومن البيّن أنّ الجزئيّة الكريمة تشير فى القول : ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن ﴾ إلى مصدر القرآن الكريم وإلى كيفيّة الإيحاء به وأنّه كلام ربّ العالمين نزل به الرّوح الأمين جبريل عليه السّلام . وتنصّ الجزئيّة الكريمة على الغاية من إيحاء الله تعالى القرآن الكريم إلى النّبيّ ﷺ وذلك فى القول : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ ومع أنّ القرآن الكريم ينذر الكافرين ويبشّر المؤمنين فإنّ الكافرين لمّا كانوا محور الحديث فى الآية الكريمة وكان الّذى قد ينفع معهم هو الإنذار كان فى الآية الكريمة النّصّ على

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « شهد » ٢٦٩ . (٢) الآية ١٦٦ .

ذلك . ومعنى القول : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ لأنذركم أيها المشركون بهذا القرآن الكريم ومن بلغه هذا القرآن الكريم إلى يوم الدّين .

والحقيقة أنّ الآية الكريمة تشير إلى أعظم سلاح للمؤمنين فى مجال الدّعوة إلى الله تعالى . إنّه القرآن الكريم . وقد نصّت آيةٌ كريمةٌ من سورة الفرقان على أنّ أكبر سلاحٍ للمصطفى ﷺ ولكلّ فردٍ من أفراد الأمّة الإسلاميّة يجاهد به الكافرين جهادًا كبيرًا هو هذا القرآن الكريم . قال تعالى(١) : ﴿ فلاتطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيرًا ﴾ .

ومن البيّن أنّ قضيّة التّوحيد هي كبرى مسائل الخلاف بين المصطفى ﷺ وبين المشركين ، ولهذا تحوّل الحديث حتّى نهاية الآية الكريمة إلى هذه القضية الّتى يقلّب الحديث عنها على وجوهه المختلفة من سؤال إنكاريّ إلى جوابٍ تصحيحي إلى إعلانٍ بأنّ الله تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، إلى البراءة من إشراك المشركين مع الله تعالى سواه . قال تعالى : ﴿ أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهةً أخرى قل لا أشهد . قل إنّما هو إله واحد وإنّنى برىء مّما تشركون ﴾ إنّ هذا السّؤال التقريعي التّوبيخي : ﴿ أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهةً أخرى ﴾ لينكر على المشركين تشبّثهم بالشرك فضلاً عن الذّبّ عنه أو الدّعوة إليه . فهل ينطلق هؤلاء المشركون فى إشراكهم مع الله تعالى من علمٍ أكيدٍ يُنَزلُ منزلة علم الشّاهد أو الشّهيد بما يشهد به لقومٍ أو عليهم ؟ جاء فى سورة الزّخرف(٢) مثلاً قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وجعلوا الملائكة الّذين هم عبادالرّحمن إناثًا . أشهدوا خلقهم ستُكْتَبُ شهادتهم ويُسْألون . وقالوا لو شاء الرّحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يَخرصون . أم آتيناهم كتابًا من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قريةٍ من نذيرٍ إلاّ قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾ .

---

(١) سورة الفرقان ٥٢ .   (٢) الآيات ١٩ ــ ٢٣ .

إنّ كفّار مكّة ومن شاكلهم هل يشهدون أنّ مع الله تعالى آلهةً أخرى ، وقد جاء فى سورة الرّعد[١] قوله تعالى : ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل الله خالق كلّ شيءٍ وهو الواحد القهّار ﴾ إنّ منتهى ما يجرى على ألسنة هؤلاء المشركين مع الله تعالى غيره من الآلهة المزعومة ما جاء فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الزّمر[٢] : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى ﴾ وهب أنّ من المشركين من انتهى به درك القباحة والوقاحة إلى الإدلاء بشهادة الزّور هذه . هنا يجىء فى الآية الكريمة الأمر للمصطفى ﷺ أن يقول ردًّا على أولئك الوقحين كما جاء فى الجزئيّة الكريمة : ﴿ قل لا أشهد ﴾ والمعنى قل لا أشهد ولا أدلى بشهادة الزّور التّى أدليتم بها بأنّ مع الله تعالى آلهة أخرى . وإنّ لسان حال الجزئيّة الكريمة ولسان حال المصطفى ﷺ الّذى يرفض أن يدلي بشهادة الزّور ليقول : إنّ الله سبحانه وتعالى هو الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . وإنّ ما نطق به لسان الحال هنا نطق به لسان مقال الجزئيّة الكريمة الأخيرة الّتى تبدأ بجملة : ﴿ قل ﴾ الّتى تجىء فى الآية الكريمة للمرّة الرّابعة : ﴿ قل إنّما هو إله واحدٌ وإنّنى برىءٌ ممّا تشركون ﴾

ومن البيّن أنّنا بصدد إثباتٍ لألوهيّة الإله الواحد ، وحصر لتلك الألوهيّة فى ذلك الإله الواحد المعبود بحقّ : ﴿ قل إنّما هو إله واحد » كما أنّنا بصدد نفي لتلك الآلهة المزعومة وبراءةٍ من إشراكها فى العبادة مع الله تعالى الحقّ : ﴿ وإنّنى برىءٌ ممّا تُشْرِكون ﴾ وهكذا يتبرّأ المصطفى ﷺ وكلّ فردٍ من الأفراد المؤمنين ممّا يشرك معه جلّ وعلا المشركون من الأوثان والأصنام . وبهذا يتبيّن أنّ الإيمان والكفر ، التّوحيد والشّرك ، لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يكون بينها التقاءٌ أو اجتماع . ولمّا كانت دعوة المصطفى ﷺ عالميّةً منذ فجرها فقد نطقت بذلك آيات المكّيّ من القرآن[٣] لذا فقد تحدّثت الآية الكريمة التّالية عن أهل الكتاب فإلى :

---

(١) الآية ١٦ . (٢) الآية ٣ .

(٣) انظر مثلاً الآية رقم ١٥٨ من سورة الأعراف والآية رقم ١ من سورة الفرقان والآية رقم ٢٨ من سورة سبأ

الآية رقم (٢٠)

قال تعالى : ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . الّذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ .

تقرّر الآية الكريمة في صدرها أنّ الّذين آتاهم الله تعالى الكتاب وهم اليهود الّذين آتى الله سبحانه وتعالى نبيّهم موسى عليه السّلام التّوراة ، والنّصارى الّذين آتى الله سبحانه وتعالى نبيّهم عيسى عليه السّلام الإنجيل ، يعرفون محمّد بن عبد الله ﷺ[1] كما يعرفون أبناءهم . وكما لا يخطىء الأب ابنه من بين كلّ النّاس كذلك لا يخطىء اليهود والنّصارى المصطفى ﷺ ، بل يعرفون ولا ينكرون : ﴿ النّبيّ الأمّيّ الّذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطّيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال الّتى كانت عليهم . فالّذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النّور الّذى أُنْزِل معه أولئك هم المفلحون ﴾[2] وإلى معرفة أهل الكتاب المصطفى ﷺ كما يعرفون أبناءهم وإلى كتمان فريقٍ منهم الحقّ الّذى جاءهم من الله تعالى أشارت الآيتان الكريمتان من سورة البقرة[3] : ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقًا منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون . الحقّ من ربّك فلا تكوننّ من الممترين ﴾ وفى ضوء هاتين الآيتين الكريمتين من سورة البقرة نستطيع أن نفهم أنّ أهل الكتاب لم يؤمنوا فى مجموعهم بالمصطفى ﷺ ، وأنّ هؤلاء الّذين لم يؤمنوا به ﷺ ولم يعتنقوا دين الإسلام هم الخاسرون حقًا .

فى ضوء هذه المعاني نحن نستطيع أن ننظر إلى عجز الآية الكريمة الّذى يتّفق

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ١٥٤/٥ وتفسير ابن كثير ١٢٦/٢ والجلالين وتفسير القرطبيّ ٢٣٩٧ والبحر المحيط ٩٢/٤ وتفسير الطّبريّ ١٠٥/٧ والكشّاف ٤٩٩/١ .

(٢) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٣) الآية ١٤٦ ، ١٤٧ .

مع الجزئيّة الأخيرة من الآية الكريمة الثّانية عشرة من سورة الأنعام الكريمة . قال تعالى : ﴿ الّذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ إنّ الجزئيّة الكريمة تقرّر أنّ الّذين خسروا أنفسهم من أهل الكتاب ومن غيرهم هم الّذين لا يؤمنون بالله تعالى ربّاً ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمّد ﷺ رسولاً ، وبالقرآن الكريم منهجًا .

ولمّا كان التّكذيب هو الآفة الّتى انبثقت عنها بقيّة آفات المكذّبين المستهزئين فإنّ آخر آيات القسم تتحدّث عن هذه الصّفة السّيئة وما ترتّب عنها من سوء فإلى.

الآيـــــة رقم (٢١)

قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممّن افترى على الله كذبًا أو كذّب بآياته . إنّه لا يفلح الظّالمون ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّه لا أحد أظلم[١] ممّن افترى على الله كذبًا بنسبة الصّاحبة أو الولد أو الشّريك إليه عزّ وجلّ ، : ﴿ أو قال أوحي إليّ ولم يُوحَ إليه شيء ﴾[٢] ولا أحد أظلم ممّن كذّب بآيات الله تعالى ، وفى مقدّمتها آيات القرآن الكريم ، الكتاب العزيز الذّى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد .

وتقرّر الآية الكريمة فى الجزئيّة الأخيرة : ﴿ إنّه لا يفلح الظّالمون ﴾ تقرّر أنّه لا يفلح الظّالمون ولا ينجحون فى الأولى والآخرة . إنّهم ظلموا أنفسهم فخسروها وظلموا الآخرين الّذين أضلّوهم . وقبل ذلك هم بوضعهم العبادة فى غير موضعها وصرفها عن الله تعالى الّذى يستحقّها وحده لا شريك له إلى ما لا يستحقّها من المعبودات الزّائفة هم قد ظلموا العبادة ذاتها . وكيف يكون الفلاح من نصيب أولئك الّذين ارتكبوا كلّ أنواع الظّلم وأبشع أنواع الظّلم . والفلاح : بلوغ الأمل والإرادة والنّجاح[٣] .

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ١٥٦/٥ والجلالين وتفسير ابن كثير ١٢٦/٢ والبحر المحيط ٩٣/٤ وتفسير القرطبيّ ٢٣٩٨ . (٢) سورة الأنعام ٩٣ . (٣) تفسير ابن عطيّة ١٥٦/٥ .

[٣]

« بعض أهوال يوم القيامة الّتى يشاهدها المكذّبون »

الآيـــات (٢٢ ـ ٣٢)

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ
الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ
رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ
لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن
يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ
فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾
بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ
﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٢﴾

من أهمّ سمات هذا القسم أنّ حديث الآيات الكريمات يتوزّع بين الآخرة والأولى على التّوالى . إنّ السّياق يتحدّث عن حشر الله تعالى النّاس جميعًا ثمّ يقول جلّ وعلا للمشركين على ألسنة الملائكة : ﴿ أين شركاؤكم الّذين كنتم تزعمون ﴾ وكنتم تدّعون أنّهم شركاء لله تعالى . ولمّا كان السّؤال مفاجئًا للمشركين وصعبًا فقد كان بمثابة ابتلاء القوم وفتنتهم فى النّار قبل أن يدخلوها ويصلوا حرّها لذا فقد فرّ القوم إلى الكذب وأقسموا بالله تعالى ربّهم أنّهم ما كانوا مشركين . ولا يكاد ينتهى العجب من كذب القوم على أنفسهم وقد ضلّ عنهم فى ذلك اليوم العصيب الآلهة المزعومة . ويتحوّل الحديث إلى الحياة الأولى فيقرّر أنّ مِنْ هؤلاء المشركين من كان يستمع إلى النّبيّ ﷺ وهو يقرأ القرآن الكريم ولكنّه كان يسمع دون وعي ودون استعدادٍ للفهم فزاد الله تعالى آذان القوم صممًا على صممٍ وجعل على قلوبهم أغطيةً لئلاّ يفقهوا القرآن الكريم عقابًا لهم على انصراف قلوبهم عنه . ولا يؤمن الكافرون بأيّ آية حتّى إذا جاءوا المصطفى ﷺ جادلوه عليه الصّلاة والسّلام فى الحقّ بالباطل وقالوا عن القرآن الكريم إنّه أساطير الأوّلين وأكاذيبهم . وهم ينهون الآخرين عنه ﷺ وينأون هم أنفسهم عنه عليه الصّلاة والسّلام وما يهلكون إلاّ أنفسهم بالتّكذيب . والعجيب أنّهم لا يشعرون بشيء من الخسائر مطلقا . ويعود السّياق إلى الحديث عن الدّار الآخرة فيقرّر الأمر الشّنيع والحال الفظيع للقوم حينما يعرضون على النّار ويُحْبسون على الصّراط الممدود فوق جهنّم الّتى يدخلونها من قريب . وهنالك يتمنّون لو أنّهم عادوا إلى الحياة الأولى فصدّقوا وآمنوا . ويبيّن السّياق السّبب فى تمنّيهم العودة إلى الحياة الأولى وهو ثبوت كذبهم فى القول الّذى جرى على لسانهم من قبل : ﴿ والله ربّنا ما كنا مشركين ﴾ ويقرّر أنّهم لو عادوا إلى الحياة الدّنيا لعادوا إلى الكفر الّذى نهوا عنه لأنّهم كاذبون . وإنّ هؤلاء

الكافرين ليتأسّون بإبليس اللّعين الّذى أصرّ على كفره مع ما رأى من آيات الله تعالى البيّنات . وتأتى بعد ذلك آيةٌ تتحدّث عن نظرتهم فى الحياة الدّنيا إلى البعث : ﴿ وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدّنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ ويعود السّياق إلى تبيّين حال القوم السّيّئ يوم القيامة . إنّهم حينما يعرضون على ربّهم جلّ وعلا يقال لهم على سبيل التّبكيت والتّقريع : ﴿ أليس هذا بالحقّ ﴾ ويجيء على لسان القوم الجواب : ﴿ قالوا بلى ﴾ ويضيفون إلى الجواب القول : ﴿ وربّنا ﴾ وكأنّ القوم بهذه الإضافة يعبّرون عن ندمهم إزاء تقصيرهم فى جنب الله تعالى الّذى ربّاهم بنعمه جلّ وعلا وآلائه . وليس للقوم من جزاء سوى العذاب الأليم بسبب كفرهم . ويعود السّياق إلى الحديث عن الحياة الأولى فيقرّر خسارة الّذين أنكروا البعث حتّى إذا جاءت السّاعة فجأة وقامت القيامة : ﴿ قالوا ياحسرتنا على ما فرّطنا فيها ﴾ . وقد لفت انتباهنا فى القول : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾ علاقة لفظة الأوزار لغويّا بالأثقال وقدرة الظّهور فى العادة على حمل الأثقال . وتشير آخر آيات القسم إلى الحياة الدّنيا الّتى هي ليست إلاّ لعبًا إن كانت الأعمال الّتى تتمّ فيها لا يراد بها وجه الله تعالى ، أو لهوًا إن كانت الأعمال الّتى تتّم فيها ليست صالحةً وليست جدّاً . وكأنّ الآية الكريمة تشير إلى وجوب توافر شرطين اثنين كي يتفضّل الله تعالى بقبول الأعمال : أمّا الشّرط الأوّل فهو أنّ العبد يجب أن يريد بأعماله وجه ربّه الأعلى ، وإلى هذا الشّرط أشارت جملة : ﴿ يتّقون ﴾ ذات العلاقة بالتّقوى . وأمّا الشّرط الآخر فهو أنّ الأعمال يجب أن تكون صالحةً بمقياس الإسلام وإنّ للعقل دوره فى الاهتداء إلى الدّليل الشّرعى وإلى صفة الصّلاح وقد أشارت جملة : ﴿ تعقلون ﴾ إلى هذا الشّرط .

الآيـــات رقـم (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤)

قال تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعًا ثمّ نقول للّذين أشركوا أين شركاؤكم الّذين كنتم تزعمون . ثمّ لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾

قرّرت آخر آيات القسم السّابق أنّه لا أحد أظلم ممّن افترى على الله كذبًا أو كذّب بآياته جلّ وعلا وأنّه لا يفلح الظّالمون فى الأولى والآخرة . وإنّ أولى آيات هذا القسم التّالى تتحدّث فى عدم فلاح الظّالمين فى الآخرة فتقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يحشر الظّالمين المكذّبين المعرضين المستهزئين جميعًا ، وأنّ أولئك المشركين الّذين ارتكبوا الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى أبدًا سوف يقال لهم على سبيل التّوبيخ والتّقريع : ﴿ أين شركاؤكم الّذين كنتم تزعمون ﴾ أي تدّعون أنّهم شركاء لله تعالى فتعبدونهم وتزعمون أنّهم يقرّبونكم إلى الله تعالى زلفى ! ومعنى : ﴿ الّذين كنتم تزعمون ﴾ تزعمونهم شركاء فَحُذِف المفعولان (١) .

ولمّا كان المشركون قد تبيّنوا خطأهم بعد فوات الأوان لذا فقد كان السّؤال الإنكاريّ مزعجًا لهم وبمثابة الامتحان الشّديد لهم والابتلاء الأكيد فى حقّهم لذا جاء فى الآية الكريمة التّالية عن حال المشركين القول : ﴿ ثمّ لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا ﴾ والفتنة : الاختبار ، يقال: فتنت الذّهب فى النّار إذا أدخلته إليها لتعلم جودته من رداءته(٢) وكأنّ هذا السّؤال قد بلغ من إزعاجه للقوم للدّرجة الّتى أدركوا معها أنّهم بمثابة مَنْ فُتِن فى النّار فتونًا وصُهِر فيها حتّى ذاب . وليس بخافٍ أنّ هذا الإدراك قد تمكّن منهم وهم يرون النّار الّتى تكاد تميّز من الغيظ ، وكأنّهم دخلوا فى أعماقها قبل أن يدخلوها .

---

(١) الكشّاف ٤٩٩/١ .

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة بشرح وتحقيق السّيّد أحمد صقر ٣٦٢ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « فتن » ٣٧١ .

وإذا كان المشركون قد حصلوا فى الحياة الدّنيا على بعض النّفع الرّخيص من الكذب الصّريح الّذى اعتادوا اللّجوء إليه فإنّهم يوم القيامة ، وقد وجدوا أنفسهم فى ذلك الموقف المهين ، يحاولون أن يكذبوا ، بل ويحلفون على الكذب زاعمين أنّهم ما كانوا مشركين بالله تعالى غيره من الآلهة المزعومة : ﴿ ثمّ لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ إنّ هذا الموقف من المشركين يذكّرنا بالموقف المشابه من المنافقين الّذين أشار إلى كذبهم وحلفهم على الكذب قوله تعالى فى سورة المجادلة[1] : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعًا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويَحْسَبون أنّهم على شيء . ألا إنّهم هم الكاذبون ﴾ .

وإذا كان كلّ من الكافرين والمنافقين قد تمكّنوا فى الحياة الأولى من الحصول على بعض النّفع من عباد الله تعالى فهل يظنّون أنّهم يستطيعون الحصول على بعض النّفع كذلك من ربّ العباد الّذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه . العجيب فى أمر كلّ من الكافرين والمنافقين أنّهم لهول الموقف فى حقّهم على جهة الخصوص يظنّون أنّهم بكذبهم وحلفهم على الكذب فى الآخرة يستطيعون أن يحصلوا على النّفع الّذى حصلوا عليه فى الدّنيا . وكأنّ الكافرين والمنافقين يظنّون أنّ الحلف بالله العظيم إذا كان قد جاز على عباد الله تعالى فى الأولى وهم الكاذبون يجوز على ربّ العباد فى الآخرة . الحقيقة أنّا لا نكاد نجد تعليلاً لهذا الجراءة من الكافرين سوى هذا التّعليل . وانظر إلى جمع الكافرين فى حلفهم الكاذب بين اسمين من أسماء الله تعالى الحُسْنى : ﴿ والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ ونستطيع أن نفهم من مجيء لفظ الرّب المضاف إلى ضمير المتكلّمين إحساس الكافرين العميق بعد فوات الأوان بتقصيرهم فى جنب الله تعالى مربّيهم بنعمه وآلائه ، وشعورهم المرير بتقصيرهم فى جنب الله تعالى .

---

(١) الآية ١٨ .

وإنّ الآية الكريمة الثّالثة تأمر المصطفى ﷺ ابتداءً أن ينظر بقلبه(١) وأن يتدبّر بفكره كيف كذبوا على أنفسهم ، وتبيّن أنّ الآلهة المزعومة غابت عنهم وخذلتهم . قال تعالى : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم . وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . إنّ هؤلاء المشركين الّذين يعلمون أنّهم يحلفون بالله تعالى العظيم كذبًا ، والّذين لا يجهلون أنّ الله تعالى يعلم سرّهم ونجواهم هل يكذبون على غير أنفسهم ؟ إنّهم لا يكذبون إلاّ على أنفسهم فاستحقّوا أن يتعجّب منهم وذلك فى القول : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ ويصحّ أن يكون الشّقّ الآخر من الآية الكريمة الّذى يبيّن تخلّي الآلهة المزعومة عنهم يوم القيامة : ﴿ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ يصحّ أن يكون هذا الشّقّ بمثابة التّبيين للباعث للكافرين على أن يكذبوا ويحلفوا على الكذب . إنّه الخِذْلان فى ذلك الموقف العصيب للمشركين من الآلهة المزعومة الّتى أخذت غير سبيل المشركين ، والّتى تأكّد أنّها لا تملك ضرًّا ولا نفعًا ، ولا تملك موتًا ولا حياةً ولا نشورا . وإنّ الحديث عن الثّمرة النّكدة فى حقّ الكافرين يوم القيامة استتبعه الحديث عن حالهم فى الحياة الدّنيا الّذى أدّى إلى السّيّئ من مآلهم فى الحياة الأخرى وذلك فى الآيتين الكريمتين التّاليتين فإلى أولاهما .

الآيـــة رقم (٢٥)

قال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك . وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقرًا . وإن يروا كلّ آيةٍ لا يؤمنوا بها . حتّى إذا جاءوك يجادلونك يقول الّذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين ﴾ .

إن الآية الكريمة فى القول : ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ تقرّر أنّ من المشركين من يستمع إلى المصطفى ﷺ وهو يرتّل القرآن الكريم ترتيلاً ويبيّن للنّاس ما أنزل الله تعالى إليهم . فهل استفاد المشركون شيئًا ممّا سمعوا من النّبيّ ﷺ بطريقٍ

---

(١) انظر تفسير ابن عطيّة ١٦١/٥ وتفسير الطّبريّ ٢٠٧/٧ والبحر المحيط ٩٦/٤ .

مباشر ؟ إنّهم لم يستفيدوا شيئًا . أمّا القلوب فقد جعل الله تعالى عليها أكنّة ، أي أغطية[١] وأمّا الآذان فقد جعل الله تعالى فيها وَقْرا ، أي ثقلاً وصمما[٢] قال تعالى : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقْرًا ﴾ ومعنى يفقهوه لئلاّ يفقهوه[٣] .

والحقيقة أنّ إشارة الآية الكريمة إلى استماع المشركين إلى المصطفى ﷺ من ناحية وإلى جعل الله تعالى فى آذانهم وقرًا من ناحيةٍ أخرى ، وأنّ الإشارة كذلك إلى جعل الله تعالى على قلوب المشركين أغطيةً لئلاّ يفقهوا القرآن الكريم ، يحملنا كلّ ذلك على الحديث عن دور كلّ من الأذن والقلب فى مجال العلم ، فقبول ذلك العلم أو رفضه ، العمل بموجبه أو الخروج عليه .

من المعروف أنّ ثمّة أذنين . أذنًا حسّيّةً وأذنًا معنويّة . وبشأن الأذن الحسّيّة يستوى من يعقل وما لا يعقل . بمعنى أنّ من يعقل ومالا يعقل لا يستطيع أن يحول بين أذنه وبين وصول الأصوات إليها ، حسنةً كانت أو سيّئة . والعجيب بشأن الإنسان أنّه حتّى حينما يضع إصبعه فى أذنه يظلّ يسمع دويًّا ، وذلك معناه أنّ الأذن الحسّيّة حينما تكون سليمةً بإذن الله تعالى تظلّ تعمل وإن أراد لها صاحبها ألاّ تعمل .

وإذا كان ما لا يعقل تقف به أذنه أو يقف بها عند المرحلة الأولى مرحلة الأذن الحسّيّة فلأنّه لا عقل له ، والمعروف أنّ العقل مناط التّكليف ، وبما أنّ ما لا يعقل غير مكلّف ، فقد اكتفى بالأذن الأولى الحسّيّة ، واستغنى عن الأذن الأخرى المعنويّة .

والعجيب فى أمر المشركين أنّهم رضوا بالأذن الحسّيّة الأولى واستغنوا عن الأذن الأخرى المعنويّة وكأنّهم لا عقول لهم ، وكأنّهم غير مكلّفين ، وكأنّ الله سبحانه

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ١٠٨/٧ وتفسير ابن عطيّة ١٦١/٥ والجلالين وتفسير ابن كثير ١٢٧/٢ وتفسير القرطبيّ ٢٤٠١ .

(٢) انظر تفسير الطّبري ١٠٨/٧ والجلالين وتفسير ابن عطيّة ١٦٢/٥ وتفسير القرطبيّ ٢٤٠١ وتفسير ابن كثير ١٢٧/٢ .

(٣) انظر الجلالين وتفسير ابن كثير ١٢٧/٢ وتفسير القرطبيّ ٢٤٠١ والبحر المحيط ٩٧/٢ .

وتعالى لم يخلقهم ليعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك لـه . وبسبب رضا المشركين بمستوى الأنعام نزّلتهم هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف[١] منزلة الأنعام بل هم أضلّ . قال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيرًا من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يُبْصِرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون ﴾ .

وإنّما كان المشركون أضلّ من الأنعام لأنّ الأنعام الّتى لا تعقل تحرص بغريزتها على ما ينفعها فتقترب منه وتدنو إليه ، وفى المقابل تفرّ ممّا يضرّها ولا ينفعها . أمّا المشرك فإنّه يفرّ ممّا ينفعه ويندفع لا يلوى على شيء حريصًا على هلاكه . فكيف لا يكون المشركون كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا . وانظر إلى تنزيل الآية الكريمة من سورة البقرة المشركين وداعيهم إلى الهدى الّذى لا يستجيبون إليه وهو محمّد بن عبد الله ﷺ منزلة الأنعام الّتى لا تسمع من راعيها إلاّ دعاءه إن كان قريبًا منها أو نداءه إن كان بعيدًا عنها ، دون أن تعي شيئًا من الدّعاء أو النّداء . قال تعالى[٢] : ﴿ ومثل الّذين كفروا كمثل الّذى يَنعِق بما لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً . صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾ .

وانظر إلى وصف الأذن بأنّها واعية ، وهي الأذن الثانية أو المعنويّة ، وذلك فى قوله تعالى من سورة الحاقّة[٣] : ﴿ إنّا لمّا طغا الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرةً وتعيها أذنٌ واعية ﴾ .

وانظر إلى وصف الآلهة الّتى يدعو المشركون بأنّها إذا دُعِيت إلى الهدى لا تَسْمع أصلاً إذا كانت جمادًا ، ولا تسمع سماع قبول إذا كانت لا تعقل أصلاً أو لا تريد أن تستعمل عقولها استعمالاً صحيحًا إن كانت تعقل . جاء فى سورة الأعراف[٤] قوله تعالى : ﴿ والّذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يُبْصِرون ﴾ .

---

(١) الآية ١٧٩ .
(٢) سورة البقرة ١٧١ .
(٣) الآية ١١ ، ١٢ .
(٤) الآية ١٩٧ ، ١٩٨ .

وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة الأنعام تشير إلى الأذن الأولى الحسّيّة الّتى يستوى بشأنها من يعقل وما لا يعقل وذلك فى القول : ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ وأفرد : ﴿ يستمع ﴾ وهو فعل جماعةٍ حملاً على لفظ : ﴿ مَنْ ﴾[١] كما تشير الآية الكريمة إلى الأذن الأخرى المعنويّة الّتى جعل الله سبحانه وتعالى فيها وقرًا وذلك فى القول : ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ﴾ وهذا الوقر الّذى جعله الله تعالى فى آذان المشركين ثمرةٌ من جنس انصراف المشركين النّكد عن سماع القرآن الكريم سماع قبول ، بل ثمرةٌ من جنس انصرافهم عن سماع القرآن الكريم سماعًا مجرّدًا خوفًا من جذب القرآن لآذانهم من مجرّد السّماع الحسّيّ إلى مرحلة السّماع الواعى المتدبّر . وليس انصراف المشركين بآذانهم عن سماع القرآن الكريم ، وليس انصرافهم بأجسادهم عن مجالس تلاوة القرآن إلاّ ثمرةً لانصراف قلوبهم عن تلقّى القرآن الكريم بالقبول . جاء فى هذه المعانى قوله تعالى[٢] : ﴿ وقال الّذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلّكم تَغْلِبون ﴾ وقوله تعالى فى المنافقين إخوان الكافرين كما جاء فى سورة التّوبة[٣] : ﴿ وإذا ما أنزلت سورةٌ نظر بعضهم إلى بعضٍ هل يراكم مِنْ أَحَدٍ ثمّ انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنهّم قومٌ لا يفقهون ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ ومنهم من يسمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين أوتوا العلم ماذا قال آنفًا . أولئك الّذين طَبَع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ وجاء فى سورة الأنعام[٥] الكريمة هذه قوله تعالى : ﴿ فمن يُرِدِ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقًا حَرَجًا كأنّما يصّعّد فى السّماء . كذلك يجعل الله الرِجْسَ على الّذين لا يؤمنون ﴾ .

ونستطيع أن نفهم من موقف المشركين الرّافض لمجرد السماع للقرآن الكريم أو

---

(١) تفسير ابن عطيّة ١٦١/٥ . (٢) سورة فصّلت ٢٦ . (٣) الآية ١٢٧ .
(٤) سورة محمّد ١٦ . (٥) سورة الأنعام ١٢٥ .

المضطرّين لسماعه سماعًا مجرّدًا في أحسن الأحوال أنّ القرآن الكريم حينما يصل إلى آذان المشركين فإنّهم يحاولون جهد الطّاقة حالاً أن يحولوا بين آي الذّكر الحكيم وبين أن تخترق مرحلة السّماع المجرّد ، وذلك بطرد الكلام عن آذانهم وصرفهم له عنها ـ صرف الله قلوبهم ـ وبذلك لا تجد آي الذّكر الحكيم أيّ منفذٍ كي تتسلّل منه ولا تتحوّل الأذن من مرحلة السّماع المجرّد إلى مرحلة السّماع الواعي . وبما أنّ القوم قد حالوا بين آذانهم وبين أن تعمل وظيفتها الرّئيسيّة وتقوم بواجبها الأهمّ وهو السّماع الواعي فقد زاد الله تعالى تلك الآذان الّتي بها ، بمحض اختيار أصحابها ، ما يشبه الصّمم عن السّماع المجرّد لأنّها لم تنتفع به ، زادها الله تعالى إلى صممها صممًا عن سماع أحسن الحديث سماع قبول . وكأنّ هذا النّوع من الصّمم متعلّقٌ بمرحلة السّماع الأخرى الأكثر أهميّة ثمرةً للصّمم النّكد المتعلّق بمرحلة السّماع الأولى المجرّدة . وقد عبرّت آية سورة الأنعام عن المرحلة الأولى بالسّماع وعن المرحلة الأخرى بالصّمم . قال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك . وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ﴾ .

وحينما لا يجد القول منفذا يتسرّب خلاله من الأذن المجرّدة إلى السّماع الواعي لا يجد له بطبيعة الحال في القلب مستقرّاً ، وهذا من باب الأحْرى والأوْلى . وكيف تعمل في المقابل الأذن الواعية والقلب المنشرح للإسلام ؟ نستطيع أن نفهم أنّ من شرح الله صدره للإسلام والّذي عناه قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ نستطيع أن نفهم أنّ أحسن القول حينما يصل إلى الأذن ترتاح له وتأنس به وتستقبله أحسن استقبال وتنزله أحسن منزل فيتحوّل القول على الفور من مرحلة السّماع المجرّد إلى مرحلة السّماع الواعي والعقل المتدبّر والفكر المتأمّل . وما أسرع تحدّره في القلب نورًا وفي الفؤاد سرورا وفي الصّدر بهجةً وحبورا .

---

(١) سورة الأنعام ١٢٥ .

وإذا كنّا من النّاحية النّظريّة نقول إنّ الهداية تمرّ بهذه المراحل : السّماع المجرّد ، السّماع الواعى ، العقل ، القلب ، فإنّا من النّاحية التّطبيقية أو العمليّة نستطيع أن نقول الشيء ذاته بشأن مرحلة السّماع المجرّد أو العمل الخارجيّ للأذن ، ونستطيع أن نقول وراء ذلك إنّ أعمال الأذن الواعية والعقل أو الفكر والقلب متداخلة بل متشابكة للدّرجة الّتى يصحّ أن نقول معها : إنّ السّماع الواعي إذا كان يصحّ أن يكون بالعقل لكون الرّأس مستقرّ الأذن والمخّ ، فإنّ الفقه ، بمعنى الوعي ، كما يصحّ أن يكون بالعقل أو الفكر يصحّ أن يكون بالقلب أو الفؤاد . قال تعالى[١] : ﴿ أو لم يَهْدِ للّذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنّها لا تَعْمَى الأبصار ولكن تَعْمَى القلوب الّتى فى الصّدور ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك . وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ﴾ .

وكما كان موقف مشركى مكّة الإعراض عن آيات القرآن الكريم كان موقفهم الإعراض عن كلّ آيةٍ يرونها بأعينهم الّتى فى رءوسهم من بين آيات الله تعالى الكُثْر الّتى خُصّ بها محمّد بن عبد الله ﷺ . وعليه فإنّ التّعنّت ديدن مشركي مكّة.

وبشأن القول فى الآية الكريمة خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ حتّى إذا جاءوك يجادلونك يقول الّذين كفروا إنْ هذا إلاّ أساطير الأوّلين ﴾ ومعناه حتّى إذا جاءك الّذين كفروا ووصلوا إليك فعلاً يخاصمونك[٤] فى القرآن الكريم ويحاجّونك ويناظرونك فى الحقّ بالباطل[٥] بشأن هذا القول يلفت نظرنا حرف الابتداء :

---

(١) سورة الأعراف ١٠٠ . (٢) سورة محمّد ٢٤ . (٣) سورة الحجّ ٤٦ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٧ والبحر المحيط ٩٨/٤ . (٥) تفسير ابن كثير ١٢٧/٢ .

﴿ حتّى ﴾[1] وجملة : ﴿ جاءوك ﴾ ونبدأ الحديث بجملة : ﴿ جاءوك ﴾ لمعنى جملة : ﴿ جاء ﴾ الدّقيق الصّارم فى القرآن الكريم . إنّ جملة : ﴿ جاء ﴾ تُستَعْمَلُ فى القرآن الكريم دليلاً على القرب الزّمانيّ والمكانيّ والمعنويّ أو النّفسيّ . وإنّ جملة : ﴿ أتى ﴾ صنوها تُستَعْمَلُ فى القرآن الكريم دليلاً على البعد الزّمانيّ والمكانيّ والمعنويّ أو النّفسّي . وإنّ جملة : ﴿ جاءوك ﴾ هنا تبيّن أنّ هؤلاء المكذّبين قد جاءوا المصطفى ﷺ ووصلوا إليه فعلاً بأجسادهم باعتبار المجىء بالبدن إليه ﷺ الوسيلة الوحيدة لمجادلته ﷺ فى الحقّ بالباطل ومخاصمتهم له عليه الصّلاة والسّلام . والمعروف أنّ هؤلاء المخاصمين له ﷺ فى الحقّ بالباطل قد مرّوا بالكثير من مظاهر تعنّتهم وسفههم من تكذيبٍ وإعراضٍ واستهزاءٍ وصدٍّ عن سبيل الله تعالى . وكأنّ المشركين حينما لم تُجْدِهِم ولم تنفعهم كلّ الوسائل الرّخيصة الّتى لجأوا إليها فرّوا أخيرًا إلى أبعد الدّرجات وأوسع الخطوات وأصعب الحالات وهي مخاصمة المصطفى ﷺ فى الحقّ بالباطل . وبهذا يتبيّن أنّ ﴿ حتّى ﴾ من قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ حتّى إذا جاءوك يجادلونك ﴾ الّتى قال عنها النّحاة إنّها للابتداء تظلّ تدلّ على الغاية أو النّهاية . وكأنّ المشركين بعد أن استنفدوا كلّ الوسائل الرّخيصة لجأوا إلى وسيلتهم الأخيرة الخسيسة .

وهكذا يتبيّن دور كلّ من : ﴿ حتّى ﴾ وجملة : ﴿ جاءوك ﴾ فى الدّلالة على المجهود النّفسى الّذى بذله المشركون ، وهذا يستفاد فى المقام الأوّل من الحرف : ﴿ حتّى ﴾ ، وعلى المجهود البدنيّ الّذى بذله المشركون ، أيضًا ، وهذا يستفاد فى المقام الأوّل من جملة : ﴿ جاءوك ﴾ وانظر إلى بلاغة الفصل فى القول : ﴿ حتّى إذا جاءوك يجادلونك يقول الّذين كفروا إن هذا إلاّ أساطير الأوّلين ﴾ إنّ المجادلة بمعنى المخاصمة والمحاجّة فى الحقّ بالباطل ، وإنّ جملة : ﴿ يجادلونك ﴾ يبيّن معناها جملة : ﴿ يقول الّذين كفروا ﴾ وهذا معناه أنّ المجادلة بالباطل هي قول الّذين كفروا

---

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨٩/٤ .

ما هذا القرآن الكريم[١] إلاّ أساطير الأولين ، أي أكاذيبهم والعياذ بالله تعالى . وجمع الأساطير أُسطورة كأُعجوبة وأُضحوكه[٢] وأُحدوثة[٣] وليس بخافٍ أنّ تكذيبهم للقرآن الكريم تكذيب ضمنيّ للنّبيّ ﷺ . وإنّ الآية الكريمة التّالية تتناول هذه المعاني فإلى .

الآيـــة رقم (٢٦)

قال تعالى : ﴿ وهم يَنْهَوْن عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

تبيّن الآية الكريمة أنّ المشركين ينهون غيرهم عن النّبيّ ﷺ وينأون هم أنفسهم عنه عليه الصّلاة والسّلام[٤] وفي الحقيقة هم ما يهلكون[٥] إلاّ أنفسهم وما يشعرون لتبلّد أحاسيسهم ولجهلهم أنّ الضّرر عائدٌ إليهم قبل غيرهم .

وممّا يلفت النّظر الجمال الصّوتيّ المتمثّل في الجناس غير التّامّ في القول : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾ ومن البّين مجيء هذه المحسّنات البديعيّة في القرآن الكريم الفَيْنَةَ بعد الفينة لأنّ المعنى يقتضيها ، وبذلك يضيف الجمال في المبنى كمالاً إلى المعنى . والحقيقة أنّنا بصدد درسٍ لنا نحن البشر يلقيه علينا القرآن الكريم بأنّ الإصابة في المعنى ينبغي أن تكون الهدف الّذي يحرص عليه كلٌّ من النّاثر والنّاظم . فإذا جاءت وراء ذلك المحسّنات اللّفظيّة بطريقةٍ عفويّة فلا ضير لأنّ المعنى هو الّذي

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٠٨/٧ وتفسير ابن كثير ١٢٧/٢ والجلالين .

(٢) انظر تفسير ابن عطيّة ١٦٤/٥ وتفسير الطّبريّ ١٠٨/٧ والجلالين .

(٣) تفسير القرطبيّ ٢٤٠٢ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير ١٢٧/٢ وتفسير الطّبريّ ١٠٩/٧ والجلالين والبحر المحيط ١٠٠/٤ وتفسير القرطبي ٢٤٠٢ ومنهم من ذهب إلى أنّ الضّمير يعود إلى القرآن الكريم أساسًا انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ١٦٥/٥ والكشّاف ٥٠٠/١ .

(٥) انظر البحر المحيط ١٠٠/٤ والجلالين وتفسير الطّبريّ ١١٠/٧ وتفسير ابن كثير ١٢٧/٢ وتفسير ابن عطيّة ١٦٥/٥ وتفسير القرطبيّ ٢٤٠٥ .

جاء بها وهو الّذى اقتضاها وبذلك تضيف هذه المحسّنات قوّةً إلى المعنى ومزيد ثبات.

وممّا يلفت النّظر أيضًا بشأن هذا القول فى الآية الكريمة : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾ تقديم نهي الآخرين فى الذّكر على نأيهم الشّخصّي عن النّبيّ ﷺ أو القرآن الكريم . وإنّ نأيهم الّذى جاء إثر نهيهم دليلٌ على مدى ضلالهم فى صدق النّهي . وما الّذى يمكن أن يقال لو أنّ النّأي تقدّم على النّهي فقيل : وهم ينأون عنه وينهون عنه ؟ يمكن أن يقال إنّ ثمّة تحوّلاً من النّأيّ إلى النّهي أو تدرّجًا طبيعيًا من النّأي إلى النّهي . ولكنّ الّذى جاء فى الآية الكريمة هو تقديم النّهي على النّأي : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾ فما الحكمة من تقديم النّهي الأقوى فى المعنى على النّأي فى ضوء التّدرّج المعنويّ الّذى أومأنا إليه لتوّنا ؟ الحكمة من تقديم النّهي الأقوى فى المعنى أنّه يرفع النّأي إلى مستواه فى قوّة المعنى وذلك دليلٌ على مدى الضّلال البعيد الّذى فيه القوم . إنّهم ينهون الآخرين عن الخير فى مثل قوّة نأيهم عنه . وليس لذلك من تفسير سوى عمى البصيرة والعياذ بالله . وهذا المعنى أكده القول فى الآية الكريمة : ﴿ وإنّ يهلكون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ وأيّ خيرٍ يُرْجى من أناسٍ ليس لديهم أدنى شعور بما يوقعهم فى الهلاك قبل سواهم ؟ إنّ الشّعور فى المعنويّات بمنزلة الشّعار فى المحسوسات وهو الثّوب الّذى يلامس شعر الجسد مباشرة . إنّ الّذى لا يشعر بالمعنويات بمنزلة الّذى لا يشعر بالمحسوسات فى صفة البلادة وموت الإحساس والشعور . وأيّ بلادة إحساس وموت شعور وراء عدم شعور الإنسان بهلاكه قبل غيره وحرصه على هذا الهلاك ودعوته الآخرين إليه ! .

وإنّ هؤلاء المشركين الّذين هذه صفاتهم والّذين حشرهم الله تعالى جميعًا يوم القيامة ما العقاب الّذى يستحقّونه ؟ النّار وبئس القرار . لقد نصّت الآية الكريمة التّالية على هذا العقاب فإلى .

الآيـــــة رقم (٢٧)

قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وُقِفوا على النّار فقالوا ياليتنا نُـرَدّ ولا نكـذّبَ بآيـات ربّنا ونكون من المؤمنين ﴾ .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ فى المقـام الأوّل وتقـول لـه : ولـو تـرى أيّهـا الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم بعينى رأسك[١] إذ وُقِف المشركون على النّار وحُبسـوا عليها[٢] أي هم فوقها على الصّراط وهي تحتهم[٣] وقد قال تعالى[٤] : ﴿ وإن منكم إلاّ واردها كان على ربّك حتمًا مقضيّا . ثمّ ننجّى الّذين اتقّـوا ونـذر الظّـالمين فيهـا جثيّا ﴾ ويكون ورود جهنّم فى هيئة جواز الجميع على الصّراط لأنّه ممـدودٌ عليهـا . روي ذلك عن ابن مسعود والحسن وقتادة[٥] : ﴿ ولو ترى إذ وُقِفـوا علـى النّـار ﴾ فقال المشركون ياليتنا نردّ إلى الحياة الأولى ولا نكذّب بآيات ربّنـا جـلّ وعـلا وفـى مقدّمتها القرآن الكريم ﴿ ونكون مـن المؤمنين ﴾ بـالله تعـالى ربّـا وبالإسـلام دينًـا وبمحمّد ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم منهجًا . وجـواب لـو محـذوف لدلالـة المعنـى عليه وتقديره : لرأيت أمرًا شنيعًا وهولاً عظيمًا[٦] .

ومن البيّن أنّ القول على لسـانهم : ﴿ يـا ليتنـا نـردّ ﴾ ردّ علـى أنفسـهم حينمـا أنكروا البعث بعد الموت ، والحسابَ ، والثّـواب أو العقـاب ، وجـاء علـى لسـانهم مثل قوله تعالى[٧] : ﴿ أيعدكم أنّكم إذا متّم وكنتم ترابًا وعظامًا أنكم مُخْرَجـون .

---

(١) انظر البحر المحيط ١٠١/٤ .

(٢) البحر المحيط ١٠١/٤ وتفسير الطّبريّ ١١١/٧ وتفسير القرطبيّ ٢٤٠٥ .

(٣) تفسير القرطبيّ ٢٤٠٥ .

(٤) سورة مريم ٧١ ، ٧٢ .

(٥) انظر البحر المحيط ٢٠٩/٦ وانظر دراستنا للآيتين الكريمتين فى كتابنا تأمّلات فى سورة مريـم ١٣٢ ـ ١٣٤ .

(٦) انظر البحر المحيط ١٠١/٤ وتفسير ابن عطيّـة ١٦٧/٥ والكشّـاف ٥٠٠/١ وتفسـير القرطبيّ ٢٤٠٥ والجلالين .

(٧) سورة المؤمنون ٣٥ ـ ٣٨ .

هَيْهَات هَيْهَات لما تُوعدَون . إن هي إلاّ حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلاّ رجلٌ افترى على الله كذبًا وما نحن له بمؤمنين ﴾ إنّهم يتمنّون أن يردّوا إلى الحياة الدّنيا حياة العمل من أجل تصحيح موقفهم السّابق .

ومن البيّن كذلك أنّ القول على لسانهم : ﴿ ولا نكذّب بآيات ربّنا ﴾ ردّ على أنفسهم حينما كذّبوا فى الحياة الدّنيا بآيات ربّهم جلّ وعلا وفى مقدّمتها القرآن الكريم . أما القول على لسانهم : ﴿ ونكون من المؤمنين ﴾ فإنّهم يعبّرون به عن تمنّيهم أن يتمثّل فيهم قمّة الإيمان بعد أن تمثّل فيهم درك الشّرك . وتُضْرِبُ الآية الكريمة التّالية عن الأماني الزّائفة فإلى .

الآيـــة رقم (٢٨)

قال تعالى : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يُخْفون من قبل ولو رُدّوا لعادوا لما نُهُوا عنه وإنّهم لكاذبون ﴾ .

تضرب الآية الكريمة فى القول : ﴿ بل ﴾ عن تمنّيهم وادّعائهم الإيمان لو عادوا إلى الحياة الدّنيا مرّة أخرى[١] وتقرّر أنّهم قد ظهر[٢] لهم ما كانوا يخفون من قَبْلُ من الشّرك وينفونه عن أنفسهم ويقسمون بالله العظيم على صحّة ذلك الادّعاء على نحو ما بيّنت الآية الكريمة الثّالثة والعشرون فى هذا القسم . قال تعالى : ﴿ ثمّ لم تكن فتنتهم إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ وقد بدا للمشركين ما كانوا يخفون من الشّرك ومن الآثام الّتى ارتكبوا لأنّ الله سبحانه وتعالى أنطق جوارحهم وجلودهم بالحقّ على نحو ما جاء فى سورة يس[٣] قال تعالى : ﴿ اليوم نَخْتِم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ وعلى نحو ما جاء فى سورة فصّلت[٤] قال تعالى : ﴿ ويوم يُحْشَرُ أعداءُ الله إلى النّار فهم يُوزَعون . حتّى

---

(١) انظر تفسير القرطبيّ ٢٤٠٧ والبحر المحيط ١٠٣/٤ . (٢) البحر المحيط ١٠٣/٤ .
(٣) الآية ٦٥ . (٤) الآيات ١٩ ــ ٢٤ .

إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الّذى أنطق كلّ شيء وهو خلقكم أوّلَ مرّةٍ وإليه تُرْجَعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصارُكم ولا جلودكم ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيرًا ممّا تعملون . وذلكم ظنّكم الّذى ظننتم بربّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين . فإن يَصْبروا فالنّار مثوىً لهم وإن يَسْتَعْتِبوا فما هم من المُعْتَبين ﴾ .

وفى القول : ﴿ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنّهم لكاذبون ﴾ يبيّن ربّ العزّة أنّ هؤلاء المشركين الّذين يتمنّون أن يعودوا إلى الحياة الدّنيا فيؤمنوا ويعملوا صالحًا لو ردّوا إلى الحياة الدّنيا لعادوا لما نُهوا عنه من الشّرك والتّكذيب والصّدّ عن سبيل الله تعالى . وتقرّر الآية الكريمة أنّ هؤلاء المشركين لكاذبون فى ادّعاء اعتناق الإيمان لو ردّوا إلى الحياة الأولى .

والحقيقة أنّ العجب لا يكاد ينتهى من هؤلاء الكافرين . وعلى أيّ شيء يدلّ عدم اعتناقهم الإيمان لو ردّوا إلى الحياة الأولى - فَرْضًا - بعد أن بعثوا بعد الموت ؟ يدلّ على أنّ القوم لم تنقصهم الحجّة على صدق المصطفى ﷺ فى المرّة الأولى كما لم تنقصهم الحجّة فى المرّة الآخرة . وبما أنّهم أصرّوا على الشّرك فى كلّ من المرّتين فذلك دليلٌ على أنّ القوم معاندون متعنّتون .

والقرطبيّ فى تفسيره[1] استدلّ على عناد القوم وتعنّتهم بإبليس اللّعين الّذى يوحى إلى أوليائه زخرف القول غرورًا فإنّ اللّعين قد عاين من آيات الله تعالى ثمّ عاند . ومن مظاهر كذب هؤلاء المشركين حينما كانوا فى الحياة الدّنيا ما أشارت إليه الآية الكريمة التّالية فإلى .

---

(١) تفسير القرطبيّ ٧ ٢٤٠ .

الآيـــة رقم (٢٩)

قال تعالى : ﴿ وقالوا إن هي إلاّ حياتنا الدّنيا وما نحن بمبعوثين ﴾

من البيّن وجه الشّبه الكبير بين الآية الكريمة وبين الآية الكريمة الرابعة والعشرين من سورة الجاثية . قال تعالى : ﴿ وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما يُهْلِكُنا إلاّ الدّهر . وما لهم بذلك من علمٍ إن هم إلاّ يظنّون ﴾ .

يرى جمهور العلماء[١] أنّ القول على لسان المشركين امتدادٌ لوصف الآية الكريمة لهم بالكذب ومظهرٌ من مظاهر قولهم الكذب على الله تعالى . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ المشركين قالوا : ما هي[٢] إلاّ حياتنا الدّنيا الّتى نحياها وما نحن بمبعوثين يوم القيامة وليس ثمّة حسابٌ ولا ثوابٌ ولا عقاب ، لأنّه ليس ثمّة بعثٌ بعد الموت أساسًا فكيف يكون ثمّة ما يترتبّ عليه من حسابٍ وجزاء . وسبق أن وصفت الآية الكريمة السّابقة القوم بالكذب . وليس لدى القوم الّذين يهرفون بما لا يعرفون شيءٌ من علمٍ ، وكلّ الّذى عندهم أنّهم اتّبعوا آباءهم اتّباعًا أعمى ، وقد جاء فى هذا المعنى قوله عز من قائل فى سورة الزّخرف[٣] : ﴿ بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قريةٍ من نذيرٍ إلاّ قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾ . ويقول أبو حيّان[٤] : « وما نحن بمبعوثين . لمّا دلّ الكلام على نفي البعث بما تضمّنه من الحصر صرّحوا بالنّفي المحض الدّالّ على عدم البعث بالمنطوق وأكّدوا ذلك بالباء الدّاخلة فى الخبر على سبيل المبالغة فى الإنكار » ويقول بشأن الحصر فى صدر الآية الكريمة[٥]: « وإن هنا نافية ، ولم يكتفوا بالإخبار عن المحصور فيقولوا هي حياتنا الدّنيا حتّى

---

(١) انظر البحر المحيط ١٠٥/٤ .

(٢) تفسير القرطبيّ ٢٤٠٨ وتفسير ابن عطيّة ١٧٣/٤ والبحر المحيط ١٠٥/٤ .

(٣) الآية ٢٢ ، ٢٣ .

(٤و٥) البحر المحيط ١٠٥/٤ .

أتوا بالنّفي والحصر ، أي لا حياة إلاّ هـذه الحياة الدّنيا فقط ، وهي ضمير الحياة وفسّره الخبر بعده ، والتقدير : ما الحياة إلاّ حياتنا الدّنيا » .

وإنّ الآية الكريمة التّالية لتؤكّد كذب المنكرين للبعث وتبيّن عقابهم . فإلى .

الآيـــة رقم (٣٠)

قال تعالى : ﴿ ولو تَرَى إذ وُقِفوا على ربّهم قال أليس هذا بالحقّ قالوا بَلَى وربّنا. قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ على غرار آيةٍ كريمةٍ سابقةٍ بالقول : ﴿ ولو ترى ﴾ والرّؤية هنا بصريّة أيضًا . والمعنى : ولو ترى أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إذ وقفوا على ربّهم لرأيت أمرًا عظيمًا . ومعنى القول : ﴿ إذ وُقفوا على ربّهم ﴾ إذ عُرِضوا[1] على ربّهم وحُبسوا على ما يكون من أمر الله فيهم[2] : ﴿ قال ﴾ جلّ وعلا لهم على لسان الملائكة تبكيتًا لهم وتقريعًا : أليس هذا البعث بالحقّ وكذلك الحساب فالعقاب أو الثّواب : ﴿ قالوا بلى وربّنا ﴾ ومن البيّن أنّ الجواب كاملٌ بقولهم : ﴿ بلى ﴾ ولكنّ القوم يجيء على لسانهم القول : ﴿ وربّنا ﴾ ومن البيّن أنّ الكلام ليس بسيطًا ولا عاديًّا فنحن بصدد واو القسم . أمّا المقسم به فلفظ الرّبّ . والمعروف أنّ لفظ الرّب يرتبط بمواقف الخصوص في القرآن الكريم بينما يرتبط لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ بمواقف العموم ، ومن أقرب الأدلّة على العموم القول في الآية الكريمة التّالية : ﴿ قد خسر الّذين كذّبوا بلقاء الله ﴾ .

إنّ المنكرين للبعث بعد أن عُرِضوا على ربّهم جلّ وعلا لفصل الحساب يجيء في الجواب على السّؤال الموجّه إليهم لفظ الرّبّ مقسمًا به في القول : ﴿ بلى وربّنا ﴾ وإنّ الخصوص الّذي يرتبط باستعمال لفظ الرّبّ في القرآن الكريم ينبّه إلى إحساس

---

(١) الجلالين . (٢) تفسير القرطبيّ ٢٤٠٨ .

الكافرين المرير بكفرانهم نعم ربّهم جلّ وعلا مربّيهم بنعمه وآلائه ومبادلتهم إحسان الله تعالى إليهم إساءةً بالتّكذيب والصّدّ عن سبيل الله تعالى .

وبما أنّ الحياة الأخرى حياة الجزاء وفق العمل فى الحياة الأولى الّتى كفر فيها منكرو البعث فإنّ الخطاب الموجّه إليهم بعد اعترافهم يشير إلى العذاب الأليم الّذى ينتظرهم والّذى يستحقّونه جزاءً وفاقا . قال تعالى : ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

ويلاحظ أنّ الجزئيّة الكريمة تختار الذوق من بين سائر الحواسّ وتستعيره للعذاب الّذى يلحق بالكافرين لأنّ حاسّة الذّوق تتقدّم فى هذه المناسبة سائر الحواسّ : « والمعنى باشروه مباشرة الذّائق إذ هي أشدّ المباشرات »[1] بما كنتم تكفرون أي بكفركم بالعذاب والباء سببيّة[2] .

وتأكيدًا للقول الّذى جاء فى الآيتين الكريمتين الثّانية عشرة والعشرين : ﴿ الّذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ تجىء الآية الكريمة التّالية فإلى .

الآيـــة رقم (٣١)

قال تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الّذين كذّبوا بلقاء الله حتّى إذا جاءتهم السّاعةُ بغتةً قالوا يا حَسْرَتَنا على ما فرّطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم . ألا ساء ما يزرون ﴾ .

تعبّر الآية الكريمة عن يوم القيامة وعن البعث بالقول : ﴿ لقاء الله ﴾ ومن البيّن مجىء لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ الّذى يستعمل فى القرآن الكريم فى مواطن العموم . فهؤلاء المشركون المستهزئون كذّبوا بلقاء الله تعالى على الإطلاق وأنكروا أن يكون ثمّة لقاءٌ لله تعالى يحاسبون فيه على كلّ صغيرةٍ وكبيرة . وتقرّر الآية الكريمة خسران

(١و٢) البحر المحيط ٤/١٠٦ .

أولئك الّذين أنكروا البعث أصلاً مستعملةً : ﴿ قد ﴾ الّتى تفيد التّحقيق . والمعروف أنّ إنكار البعث والنّشور والجزاء أو إنكار لقاء الله تعالى ليس مقصورًا على كفّار مكّة إنّما هو صفة المكذّبين فى كلّ زمانٍ ومكان . ويُفْهَم من القول : ﴿ حتّى إذا جاءتهم السّاعة بغتة ﴾ أنّ هذا الفريق من المنكرين للبعث سوف يظلّ موجودًا إلى قيام السّاعة فجأة . ومع أنّ المراد بالسّاعة يوم القيامة ولقاء الله تعالى فإنّ المراد بها أساسًا السّاعة الّتى يبعث الله فيها الموتى من قبورهم[١] ومعنى بغتة فجأة[٢] إنّ السّاعة لا تأتى إلاّ بغتة ، وقد قال تعالى[٣] : ﴿ يسألونك عن السّاعة أيّان مُرْساها . قل إنّما علمها عند ربّي لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو . ثَقُلَتْ فى السّماوات والأرض . لا تأتيكم إلاّ بغتة . يسألونك كأنّك حفيٌّ عنها . قُلْ إنّما علمها عند الله ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ إنّ السّاعة تأتى فجأة ويزيد من مفاجأتها لمنكرى البعث أنّهم وقتها يكونون منهمكين فى لعبهم ولهوهم . وهكذا يجتمع فى حقّ المكذّبين الغفلة عن يوم القيامة من ناحية ، والإنكار له من ناحيةٍ أخرى . وهكذا يظلّ القوم مكذّبين بلقاء الله تعالى ﴿ حتّى إذا جاءتهم السّاعة بغتة ﴾ ووصلتهم القيامة فعلاً نادوا الحسرة والنّدامة . وممّا يلفت النّظر مجىء جملة ﴿ جاء ﴾ الّتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب المكانيّ أو الزّمانيّ أو المعنويّ . وكأنّ السّاعة قد قطعت تلك المسافات الشّاسعة حتّى جاءتهم فى موعدها المضروب لها بإرادة الله تعالى ووصلت إليهم فعلاً فى الوقت المحدّد لها .

أما وقد بُهت المنكرون للبعث بقيام السّاعة فقد نادوا الحسرة بالقول : ﴿ يا حسرتنا ﴾ وإنّما نادوا الحسرة بأنّ ذلك وقتها كي تأتي فيه والنّدامة بأنّ ذلك أوانها الّذى لا ينبغى لها أن تتخلّف عنه ، وانظر إلى الحسرة الّتى يناديها القوم ، إنّها ليست أيّ حسرة ولكنّها الحسرة الخاصّة بهم ، والنّدامة المقصورة عليهم . إنّ القوم

---

(١) تفسير الطّبريّ ١١٣/٧ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١١٣/٧ والجلالين وتفسير القرطبيّ ٢٤٠٩ وتفسير ابن عطيّة ١٧٥/٥ .

(٣) سورة الأعراف ١٨٧ .

لفرط ألمهم وشدّة ندمهم ينادون الحسرة وكأنّهم يقولون لها هذا أوانك فاحضرى .

ولماذا ينادى القوم الحسرة ويدعون النّدامة ؟ بسبب تفريطهم فى الحياة الدّنيا وتقصيرهم فيها[١] مع القدرة على ترك التقصير[٢] وتضييعهم[٣] فيها . وبشأن الضّمير من : ﴿ فيها ﴾ يقول ابن كثير[٤] : ﴿ وهذا الضّمير يحتمل عوده على الحياة وعلى الأعمال وعلى الدّار الآخرة أي فى أمرها ﴾ وقد اختلفت آراء المفسرين فى العائد إليه الضّمير وكلٌّ مُحْتَمَل .

وإذا كنّا يصحّ أن نفهم من القول : ﴿ حتّى إذا جاءتهم السّاعة بغتة ﴾ أنّ الحديث هنا يتّجه فى المقام الأوّل إلى الأحياء فى أثناء قيام السّاعة فإنّه وراء ذلك يتّجه إلى الّذين ماتوا قبل قيامها . ومن الآيات الكريمات الّتى تشمل بصريح اللّفظ كلاًّ من الفريقين هذه الآيات الكريمات من سورة يس[٥] قال تعالى: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ما يَنْظُرون إلاّ صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يَخِصِّمون . فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يَرْجعون . ونُفِخ فى الصّور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم يَنْسِلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا . هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلاّ صيحةً واحدةً فإذا هم جميعٌ لدينا مُحْضَرون. فاليوم لا تُظْلَم نفسٌ شيئًا ولا تُجْزَون إلاّ ما كنتم تعملون ﴾ ونستذكر فى شأن السّاعة الحديث النّبويّ الشّريف ، قال رسول الله ﷺ : من مات فقد قامت قيامته[٦] وهكذا يكون نداء الحسرة فى حقّ كلّ الّذين فرّطوا فى جنب الله تعالى من الّذين ماتوا قبل قيام السّاعة والّذين ماتوا فى أثناء قيامها . إنّهم حينما يبعثون يكونون حاملين على ظهورهم أوزارهم وأثقالهم[٧] وآثامهم وذنوبهم[٨] وخطاياهم[٩] .

---

(١) البحر المحيط ١٠٧/٤ والجلالين وتفسير ابن عطيّة ١٧٦/٥ .
(٢) تفسير ابن عطيّة ١٧٦/٥ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١١٣/٧ وتفيسر القرطبيّ ٢٤١٠ .
(٤) تفسير ابن كثير ١٢٨/٢ .
(٥) الآيات ٤٨ ــ ٥٤ .
(٦) البحر المحيط ١٠٦/٤ .
(٧) تفسير ابن عطيّة ١٧٧/٥ .
(٨) تفسير الطّبريّ ١١٤/٧ .
(٩) البحر المحيط ١٠٧/٤ .

والّذى يلفت النّظر استعمال الأوزار وهي كالآثام على سبيل المثال وزنًا ومعنًى ، واستعمال الظّهور وذلك فى القول : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ وأهمّ ما يلاحظ بشأن الألفاظ المشتقّة من الأصل اللّغويّ ، بل بشأن الأصل اللّغويّ: « وزر » أنّ العلاقة وثيقة بمعنى الثّقل . فالوَزَر مثلاً الملجأ الّذى يُلْتجأ إليه من الجبل . قال : كلاّ لا وَزَر ، والوزر الثّقْل تشبيهًا بوَزر الجبل ويُعَبّر بذلك عن الإثم كما يُعَبّر عنه بالثّقْل . والوزير المتحمِّل ثِقْل أميره وشُغْلَه . وأوزار الحرب واحدها وِزر : آلتها من السّلاح [1] .

فإذا تحوّلنا إلى لفظة الظّهور تبيّنّا فى مجال حمل الأثقال أنّ الظّهور تطيق من الأحمال ما لا تطيقه سائر الأعضاء . وليس ببعيدٍ عن أذهاننا قدرة حمّالى الظّهور على حمل الأشياء الّتى تعجز عن حملها سائر الأعضاء بما فى ذلك الرّأس ، وليس ببعيدٍ عن أذهاننا كذلك إطلاق العرب لفظة الظّهر على الرّكوب تنبيهًا على الإفادة من ظهره على جهة الخصوص فى حمل الأثقال .

وتجاه تلك الآثام الثّقال الّتى يحملها المكذّبون على ظهورهم تختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ أي ما أسوأ الشيء الّذى يحملونه[2] وألا ساء الوزر الّذى يزرون ، أي الإثم الّذى يأثمونه كفرهم بربّهم[3] ساء فعل ماضٍ لإنشاء الذّمّ . ما : نكرة موصوفة فى محلّ رفع فاعل ساء . ويجوز أن يكون ما منصوبًا على التّمييز ، ميّز الضّمير المستتر وجوبًا فاعل ساء[4] .

وعلى عادة هذا القسم الّذى يتحدّث عن كلٍّ من يوم القيامة والحياة الدّنيا تتحدّث الآية الكريمة الأخيرة فى القسم عن هاتين الحياتين ، فإلى .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وزر » ٥٢١ .
(٢) تفسير القرطبيّ ٢٤١٠ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١١٤/٧ .
(٤) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٩٧/٤ .

الآيـــة رقـــم (٣٢)

قال تعالى : ﴿ وما الحياة الدّنيا إلاّ لعبٌ ولهوٌ وللدّارُ الآخرة خيرٌ للّذيـن يتّقـون . أفلا تعقلون ﴾ .

ليست الحياة الدّنيا فى يقـين المسلـم لله ربّ العـالمين سـوى حيـاة الحـرث وبـذر البذور بالإيمان وعمل الصّالحات الّتى أمر بها الشّارع الحكيم وأراد بها العامل وجـه الله تعالى ، أمّا الحياة الآخرة فإنّها حياة الحصاد وجني الثّمار . وإنّمـا تكـون الثّمـار من جنس البذور ﴿ فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيرًا يَـرَه . ومـن يَعْمَـلْ مثقـال ذرّةٍ شـرًّا يره﴾[1] وهذا معناه أنّ الأعمال الصّالحة الّتى يريد بهـا المرء وجـه ربّـه الأعلى هـي بمثابة الحـرث وبـذر البـذور ورعايـة الـزّروع فـى هـذه الحيـاة الأولى ، وبقـدر هـذه الأعمال الصّالحة كمّاً وكيفًا ، إذا تكرّم الله تعالى بقبولها ، تكـون منزلـة العبـد فـى الحياة الأخرى بإذن الله تعالى .

فى ضوء هذه المعاني نستطيع أن ننظر إلى الآية الكريمة وأن نقول إنّ الحياة الدّنيـا وراء الأعمال الصّالحة الّتى يقوم بها المرء ابتغاء وجه ربّه الأعلـى تعتـبر لعبًـا ولهـوًا . وينبغى أن نقرّر أنّ كلّ عملٍ صالحٍ يقوم به المرء ابتغـاء وجـه ربّـه الأعلى ، بمـا فـى ذلك لقمة الطّعام الّتى يضعها الزّوج فـى في زوجـه إذا أراد وجـه الله تعـالى ، يعتـبر داخلاً فى مفهوم العبادة فى الإسلام . والأعمال الأخرى الّتى يقوم بها المـرء ، وراء الأعمال الّتى يتحقّق فيها ، بإذن الله تعالى ، الشّرطان كي يتفضّل الله تعالى بقبولها، إمّا أن تكون غير صالحةٍ بمقياس الأسلام ، وبهذا هي أخلّت بشرط صـلاح العمـل ، أو تكون صالحةً بمقياس الإسلام ولكنّها لم يرد بها وجه الله تعالى وبهذا هي أخلّـت بشرط حسن النيّة ، هذه الأعمال إن كانت صالحةً لا يراد بها وجـه الله تعـالى هـي ضربٌ من اللّعب ، وإن كانت غير صالحةٍ أساسًا هي ضربٌ من اللّهو والعبث .

---

(١) سورة الزّلزلة ٧ ، ٨ .

بناءً على ما سبق نستطيع أن نفهم معنى الآية الكريمة بأنّ هذه الحياة الدّنيا وراء الأعمال الصّالحة بمقياس الإسلام الّتى يقوم بها المرء ويريد بها وجه ربّه الأعلى هي إن فقدت شرط حسن النّيّة ضربٌ من اللّعب وإن فقدت شرط الصّلاح هي ضربٌ من اللّهو . والله أعلم ، قال تعالى : ﴿ وما الحياة الدّنيا إلاّ لعبٌ ولهو ﴾ وفى القول: ﴿ وللدّار الآخرة خيرٌ للّذين يتّقون ، أفلا تعقلون ﴾ حثٌ على التّقوى بفعل الأوامر واجتناب النّواهى . والمعروف أنّ التّقوى تكاد تكون الوجه الآخر للإحسان كما بيّنه الحديث النّبوي الشّريف بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[1] والمعروف أنّ التّقوى محلّها القلب ، فعلى القلب أن يكون سليمًا ، والمعروف كذلك أنّ النّية محلها القلب . وحينما يكون القلب سليمًا تكون النّية سليمة ، وبذلك يتحقق أحد الشّرطين لتفضّل الله تعالى بقبول الأعمال الصّالحة لأنّ سلامة النّية تعنى أن يريد المرء بأعماله الصّالحة وجه ربّه الأعلى .

وإذا كان النّصّ على التّقوى فى الآية الكريمة يشير إلى شرط سلامة النّيّة والقصد فهل فى الآية الكريمة نصٌّ يشير إلى شرط صحّة العمل ؟ الجواب بالإيجاب . إنّه فى السّؤال الإنكاريّ فى آخر الآية الكريمة : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ إنّ السّؤال هنا فى معنى الأمر باستعمال العقول استعمالاً صحيحًا . وحينما يستعمل العقل استعمالاً صحيحًا فإنّه بإذن الله تعالى إنّما يهدى إلى الأعمال الصّالحة بمقياس الإسلام ، وبهذا يتحقّق الشّرط الآخر وهو شرط صحّة العمل كي يتفضّل الله تعالى بقبوله فى حال سلامة النّيّة أو القلب .

---

(١) صحيح البخاري ١/٢٠ .

[٤]

« تسلية للنبيّ ﷺ وتبشيرٌ للمؤمنين وإنذارٌ للكافرين »

الآيـــات (٣٣ ـ ٤٩)

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ
نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا
مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ
مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ
أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا
تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ
إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ
﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا
نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ
﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم
مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ
ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ
بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

تسلية المصطفى ﷺ هي المحور الّذى تدور حوله آيات هذا القسم . ويبدأ السّياق بتقرير علم الله تعالى بحزن المصطفى ﷺ لتكذيب قومه عليه الصّلاة والسّلام له ، وتبيين أنّ القوم الظّالمين لا يكذّبونه عليه الصّلاة والسّلام ولكنهم فى الحقيقة يجحدون آيات الله تعالى الّتى استيقنت أنفسهم أنّها من عند الله تعالى وفى مقدّمة هذه الآيات القرآن الكريم . وحثًّا يرفع مستوى اللّفظة إلى مستوى أخواتها للمصطفى ﷺ على الصّبر يشير السّياق إلى تكذيب الأقوام السّابقين رسلهم وإيذائهم لهم حتّى أتى نصر الله تعالى الّذى قد يتأخّر ولكن لا يتخلّف . هكذا قضى الله تعالى أحكم الحاكمين ، وهذه هي أنباء الرّسل تقول بذلك . وبقصد نهي النّبيّ ﷺ عن هلاكه نفسه حزنًا لإعراض قومه عنه يجيء فيما يكاد يكون عتابًا له عليه الصّلاة والسّلام بأنّه إن شقّ عليه إعراضهم فإن استطاع عليه الصّلاة والسّلام أن يبتغى نفقًا فى الأرض فيأتيهم بآيةٍ غير القرآن الكريم فليفعل ، أو أن يتّخذ سلّمًا فى السّماء للغاية ذاتها فليفعل . إنّ مجرّد تفكير المصطفى ﷺ فى آيةٍ غير القرآن الكريم ممتنع ، ويلحق بهذا الامتناع عدم مشيئة الله تعالى جمع النّاس كلّهم على الهدى فعلى المصطفى ﷺ أن يعلم بتلك المشيئة . وينزّل السّياق المعرضين منزلة الأنعام الّتى تسمع دعاءً ونداءً ولكنّها لا تفقه معنى ما تسمع ، كما ينزّلهم منزلة الموتى سكّان القبور وبالتّالى يتحقّق بموت المعرضين حسّيًّا موتهم ، وهم أحياء ، معنويًّا ، وهم مبعوثون بعد الموت وراجعون إلى الله تعالى . ويبيّن السّياق جهل المعرضين بالحكمة من عدم تحقيق الآيات الّتى اقترحوا لأنّهم لن يؤمنوا بها وهي الّتى تقلّ عن القرآن الكريم فى مجال الإقناع ، وفى التّكذيب بعد تحقّق الآيات استئصال شأفتهم . كما يبيّن السّياق أنّه ما من دابّة تدبّ فى الأرض ولا طائرٍ يطير فى جوّ السّماء بجناحيه إلاّ أممٌ أمثالنا . ما فرّط الله تعالى فى الكتاب من شيءٍ ثمّ إلى ربّهم يحشرون يوم القيامة فيقتصّ للجمّاء من القرناء . ويجمع المعرضون بين الصّمم والبكم وعمى البصيرة . وإنّ الّذين أصرّوا على العمى زادهم الله تعالى عمى ، وإنّ

الّذين اهتدوا زادهم الله تعالى هدى . ويأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يقول للمعرضين أخبرونى إن أتاكم عذاب الله تعالى فى الدّنيا أو أتتكم السّاعة أغير الله تعالى تدعون إن كنتم صادقين أنّ ما تدعون من دون الله تعالى شركاء له جلّ وعلا أم تفردونه جلّ وعلا بالدّعاء والعبادة . ويبيّن السّياق أنهم إنّما يدعون الله تعالى القادر على كلّ شيءٍ ويتركون الآلهة العاجزة عن كلّ شيء . ويشير السّياق إلى المكذّبين السّابقين ومصيرهم السّيئ وتوشك أن تكون نهاية المكذّبين للمصطفى ﷺ مماثلة . لقد أخذ الله تعالى أولئك المكذّبين بشديد الفقر والمرض لعلّهم يتذلّلون لله تعالى ، ولكن قست قلوب القوم وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم ، وظنّوا إمهال الله تعالى لهم إهمالاً وقالوا إنّ الدّهر يسرٌ تارات ، وعسرٌ تاراتٍ أُخَر . فلما نسوا ما ذكّروا به و لم تنفعهم البأساء والضّرّاء فى العودة إلى الله تعالى ، فتح الله سبحانه وتعالى عليهم أبواب كلّ شيءٍ من صحّةٍ وغنىً ، ولمّا فرحوا فرح أشرٍ وبطر ، أخذهم الله تعالى العزيز المنتقم الجبّار فجأةً فإذا هم آيسون من كلّ خير ، وقُطِع آخر القوم فكيف بأوّلهم ، واستئصلت شأفة القوم الظّالمين وقيل الحمد لله ربّ العالمين واستغراق كلّ الثّناء لله تعالى ربّ كلّ شيء . وبعد وصف القوم بالصَّمَمِ والبَكمِ وعمى البصيرة يأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يسأل المعرضين بأن يخبروه إن أتاهم عذاب الله تعالى بغتةً وفجأةً وبياتًا وليلاً ، أو جهرةً وعيانًا وضحىً ووقت القيلولة هل يُهْلَك إلاّ القوم الظّالمون . إنّ لسان الحال يقول عن القوم : نعم لا يهلك إلاّ القوم الظّالمون ، وبذلك يعترفون آنذاك بأنّهم حقًّا ظالمون . ويبيّن السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى ما يرسل المرسلين إلاّ مبشّرين المؤمنين بالجنّة والكافرين بالنّار ، ويعيّن أهمّ نعوت المؤمنين وأهمّ صفات الكافرين . إنّ المؤمنين يجمعون بين صحّة المعتقد وصالح العمل وهؤلاء لا خوفٌ عليهم بشأن ما يستقبلونه أمامهم ولاهم يحزنون على ما يتركونه وراءهم من أهلٍ وأولادٍ وأموال . وإنّ الكافرين يجمعون بين فساد المعتقد وفساد العمل ، إنّهم مكذّبون بآيات الله تعالى وفاسقون خارجون عن الصّراط المستقيم . إنّ هؤلاء : ﴿ يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ .

الآيــة رقــم (٣٣)

قال تعالى : ﴿ قد نعلم إنّه ليَحْزُنك الّذى يقولون فإنّهم لا يكذّبونك ولكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

الآية الكريمة فى معرض تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ . وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وكلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرّسل ما نثبّت به فؤادك وجاءت فى هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين ﴾ والآية الكريمة تشير إلى تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ عن طريق قصص النّبيّين السّابقين وذكر أنبائهم . وقد جاء محمّدًا ﷺ فى هذه الأنباء أو الآيات الحقّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين . وقال تعالى[2] : ﴿ وقال الّذين كفروا لولا نزّل عليه القرآنُ جملةً واحدة . كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا ﴾ إنّ نزول القرآن الكريم منجّمًا أي مفرّقًا فيه تثبيتٌ لفؤاد المصطفى ﷺ . وفى بعض هذه الآيات الكريمة تسليةٌ مباشرةٌ له ﷺ وذلك على غرار الآية الكريمة الّتى نحن بصددها إضافةً إلى التّسلية الضّمنيّة من مجرّد نزول القرآن الكريم منجّمًا .

إنّ الآية الكريمة تقرّر فى أسلوب التّحقيق المستفاد من : ﴿ قد ﴾ الّتى تفيده هنا رغم مجيئها مع فعلٍ مضارع ، تقرّر علم ربّ العزّة الّذى تومئ نون العَظَمة ، فى القول : ﴿ قد نعلم ﴾ ، إلى مطلق علمه . والمعروف أنّه ليس وراءَ العلم وراءٌ فى الوصول إلى أعماق المعلوم به . إنّ ربّ العزّة الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علمًا والّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، بما فى ذلك ما توسوس به نفس المرء بين جنبيه ، ليعلم بأنّه ليحزن المصطفى ﷺ ما يقوله كفّار مكّة .

وممّا يلفت النّظر فى القول : ﴿ قد نعلم إنّه ليحزنك الّذى يقولون ﴾ مجىء الجمل الثّلاث فى الزّمن المضارع الّذى يفيد التّجدّد والاستمرار . إنّ علم الله تعالى محيط . وإنّ حزن المصطفى ﷺ موصول . وإنّ قول الكافرين وتكذيبهم للمصطفى

---

(١) سورة هود ١٢٠ . (٢) سورة الفرقان ٣٢ .

ﷺ مستمر . وممّا يلفت النّظر فى الجزئيّة الكريمة النّصّ على الحزن فى القول : ﴿ إنّه ليحزنك ﴾ وليس الإشارة إلى الهمّ مثلاً .

وإنّ من ألطف ما يشار إليه بشأن الحزن والهمّ أنّ الهمّ قد جاء النّصّ عليه فى القرآن الكريم مرّةً واحدة وذلك فى معرض الحديث عن المنافقين بعد هزيمة أحد الّذين أهمّتهم أنفسهم وامتلأت صدورهم غمًّا وكآبةً بسبب تورّطهم مضطرّين فى قتال الكافرين الّذين انتصروا على المؤمنين . قال تعالى (١) : ﴿ ثمّ أَنْزَل عليكم من بعد الغمّ أَمَنةً نعاسًا يغشى طائفةً منكم ، وطائفةٌ قد أهمّتهم أنفسهم يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهليّة يقولون هل لنا من الأمر من شيء . قل إنّ الأمر كُلّه لله ﴾ وفى المقابل ما أكثر النّصّ فى القرآن الكريم على الحزن الّذى يلحق المؤمنين كما يلحق سواهم . ونستطيع أن نفهم الحزن بأنّه نوعٌ من التّفاعل الإيجابي الآمل المنبعث من منطلق الإيمان مع الألم . وهذا التّفاعل الإيجابي فى المعنويّات نلمسه كذلك فى المحسوسات لأنّ الحُزْن والحَزَن فى المحسوسات خشونةٌ فى الأرض ، ولأنّه فى المعنويّات خشونةٌ فى النّفس لما يحصل فيه من الغمّ . ويضادّه الفرح(٢) ونستطيع كذلك أن نفهم الهمّ بأنّه نوعٌ من التّفاعل الأقرب إلى كونه سلبيًّا فى الصّراع مع الحزن الّذى اشتدّ فى ذاته فصار همًّا ، أو الّذى ضعفت مقاومة صاحبه فظهر أشدّ ممّا هو عليه فى الحقيقة وتحوّل همّا . وهذا الموقف السّلبي فى المعنويّات نلمسه كذلك فى المحسوسات . فالهمّ هو الحزن الّذى يذيب الإنسان(٣) ابن السّكّيت : الهمّ من الحُزْن ، والهمّ مصدر همّ الشَّحْمَ يَهُمُّه إذا أذابه . والهمّ : مصدر هممت بالشّيء همّا(٤) .

واللّطيف فى حزن المصطفى ﷺ ، وقد عرفنا أنّ الحزن بطبعه تفاعلٌ إيجابيٌّ مع الألم ، أنّه يكاد يتحوّل لفرط قوّته وإيجابيّته هلاكًا ولكن دون أن يكون وقتًا من

---

(١) سورة آل عمران ١٥٤ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حزن » ١١٥ وانظر لسان العرب « حزن » و« همم » .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : «همم » .

(٤) لسان العرب : « همم » ٥٤٥ .

الأوقات همًّا سلبيًا . جاء على سبيل المثال فى سورة الكهف قوله تعالى(١) : ﴿ فلعلّك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ والمراد نهي المصطفى ﷺ أن يهلك نفسه فرط حزنٍ لإعراض قومه عن دعوته ﷺ لهم إلى صراط العزيز الحميد . وجاء فى المعنى نفسه قوله عزّ من قائل فى سورة الشّعراء(٢): ﴿ لعّلك باخعٌ نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين ﴾ .

ويعتبر الحزن فى القول : ﴿ إنّه ليحزنك الّذى يقولون ﴾ الّذى عرفنا إيجابيّته خير موطّىءٍ للقول بعد ذلك : ﴿ فإنّهم لا يكذّبونك ﴾ إنّ كفّار مكّة الّذين يكذّبون المصطفى ﷺ بالسنتهم إنّما يقولون خلاف ما تستيقنه أنفسهم وتعتقده قلوبهم من صدق المصطفى ﷺ فى كلّ ما أتاه عليه الصّلاة والسّلام من قولٍ أو فعل . وبهذا يكون موقف كفّار مكّة شبيهًا بموقف كفّار قوم موسى عليه السّلام الّذين جحدوا الحقيقة وتفوّهوا بألسنتهم ما ليس تعتقده قلوبهم .

والمعروف أنّ الجحود نفي ما فى القلب إثباته وإثبات ما فى القلب نفيه (٣) واللّطيف فى الأمر أنّ الآية الكريمة تختم بالنّصّ على جحود كفّار مكّة وذلك فى القول : ﴿ فإنّهم لا يكذّبونك ولكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

وقد نصّت سورة النّمل على جحد قوم موسى عليه السّلام الآيات التّسع البيّنات الّتى آتاها الله تعالى موسى عليه السّلام . قال تعالى(٤) : ﴿ فلمّا جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هذا سحرٌ مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوّاً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

إنّ كفّار قوم موسى عليه السّلام جحدوا بآيات الله تعالى التّسع البيّنات رغم إيقانهم أنّها من عند الله تعالى وأنّ موسى عليه السّلام رسول ربّ العالمين . وإنّ كفّار مكّة جحدوا بآيات الله تعالى البيّنات المتمثّلة فى القرآن الكريم الّذى أنكروا أنّه كلام ربّ العالمين ، وقد استتبع الإنكار أن كذّبوا المصطفى ﷺ .

---

(١) سورة الكهف ٦ .
(٢) الآية ٣ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « جحد » ٨٨ .
(٤) سورة النّمل ١٣ ، ١٤ .

إنّ الآية الكريمة تثبّت من فؤاد المصطفى ﷺ في القول : ﴿ فإنّهم لا يكذّبونك ﴾ والمعنى : فإنّهم لا يكذّبونك في أعماق قلوبهم ونفوسهم أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ، وفي ذلك صرفٌ لاستبداد الحزن به ﷺ الذّي لم يكن همّاً لحظةً من اللّحظات ، وإن كذّبوك بألسنتهم . وهذا هو عين الجحود . بل إنّ التّسلية للمصطفى ﷺ لتبلغ أوجها في القول بعد ذلك : ﴿ فإنّهم لا يكذّبونك ولكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون ﴾ فكما أنّ كفّار مكّة جحدوا حقيقة نبوّتك أيّها الرّسول الكريم فقالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم هم جحدوا آيات الله تعالى الّتي خصّك بها ، وفي مقدّمتها القرآن الكريم . إنّ جراءتهم لم تقف عند تكذيبهم لك ظلمًا وعدوانًا ، إنّما تجاوزت إلى تكذيبهم بآيات الله تعالى .

وهكذا يتبيّن تلاحم المعاني في تدرج الحديث من تكذيب كفّار مكّة عبدَ الله تعالى ورسوله محمّدًا ﷺ إلى تكذيبهم ربَّ العباد جلّ وعلا . وإذا كنّا تبيّنا أنّ النّصّ على الحزن في الآية الكريمة خير مهيّئ للتّحوّل إلى التّسلية الصّريحة له ﷺ ، فإنّ التّدرّج من تكذيب الكافرين عبد الله تعالى إلى تكذيبهم ربّ العباد جلّ وعلا اقترن به التّدرّج من ذكر الضّمير العائد إلى الكافرين في القول : ﴿ فإنّهم لا يكذّبونك ﴾ إلى ذكر لفظ الظّالمين العائد إلى الكافرين في القول : ﴿ ولكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ممّا يُفْهَم معه أنّ الكافرين أضافوا إلى كفرهم الظّلم ، ابتداءً بوضعهم العبادة في غير موضعها ، مرورًا بتكذيب المصطفى ﷺ ، وانتهاءً بتكذيبهم آيات الله تعالى . وكأنّنا بصدد ظلمٍ مضمرٍ في القول : ﴿ فإنّهم لا يكذّبونك ﴾ تلاه ظلمٌ مصرّحٌ به في القول : ﴿ ولكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون ﴾.

وقد جاء لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ بصريح اللّفظ ، وليس ضمير جماعة المتكلّمين على غرار نون العظمة في القول : ﴿ قد نعلم ﴾ إثر المجيء بصريح لفظ الظّالمين . وكأنّ اسم الضّمير في القول : ﴿ قد نعلم ﴾ يتناغم مع اسم الضّمير العائد إلى الكافرين ، الظّالمين بالقوّة كما يقول المناطقة ، وذلك في القول : ﴿ فإنّهم لا

يكذّبونك ﴾ وكأنّ لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ الّذى جاء ظاهرًا وبصريح اللّفظ ينبّه إلى مجيء لفظ الظّالمين بصريح اللّفظ وينسجم مع صفة الظّهور هذه .

ولعلّنا لاحظنا مجيء الجمل فى صيغة الزّمن المضارع الّذى يدلّ على الاستمرار والتّجدّد . قال تعالى : ﴿ قد نعلم إنّه ليحزنك الّذى يقولون فإنّهم لا يكذّبونك ولكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون ﴾ وفى الآية الكريمة التّالية تكون التسلية أكثر وضوحًا ، وتثبيت الفؤاد أقرب تناولاً . فإلى

الآيـــة رقـــم (٣٤)

قال تعالى : ﴿ ولقد كذّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتّى أتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ .

وإنّ من أهمّ ما نرغب الوقوف عنده جمع الآية الكريمة بين جملتي أتى وجاء : ﴿ حتىّ أتاهم نصرنا ﴾ ﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ والمعروف أنّ أتى لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو النّفسيّ ، وأنّ جاء لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب الزّمانيّ أو المكانيّ أو النّفسيّ . ونستطيع أن نتّخذ من هاتين الجملتين مفتاحًا لمعرفة أبعاد معاني الآية الكريمة .

إنّ جملة أتى فى الجزئيّة الكريمة الأولى تأتى بقصد تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام قال تعالى : ﴿ ولقد كذّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا حتّى أتاهم نصرنا ﴾ والمعنى : والله لقد كذّبت رسلٌ من قبلك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ، ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام أوّل الرّسل ، ومرورًا ببقيّتهم وفيهم إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء ، وموسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل ، وعيسى عليه السّلام آخر أنبياء بنى إسرائيل ، فصبر أولئك الرّسل على ما كذّبوا من قِبلَ أقوامهم الكافرين وصبروا على ما أوذوا وذلك على غرار تكذيب

قومك لك أيّها الرّسول الكريم وإيذائهم لك أيّها النّبيّ العظيم . لقد صبر أولئك المرسلون على التكّذيب والإيذاء حتّى أتاهم نصر الله تعالى . فعليك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم أن تصبر كما صبروا حتّى أتاهم نصرنا وحتّى يأتيك نصرنا .

وانظر إلى : ﴿ حتّى ﴾ الّتى تفيد الغاية هنا . بمعنى أنّ ثمّة غايةً يتّجه إليها الرّسل بأمرٍ من الله تعالى وإذنٍ منه جلّ وعلا وهي النّصر ورفع راية التّوحيد عاليةً خفّاقة . وإنّ لسان حال الجزئيّة الكريمة يقول : وإنّ هذه هي غايتك أيّها الرّسول الكريم فاصبر . وانظر إلى جملة « أتى » فى القول : ﴿ حتّى أتاهم نصرنا ﴾ **ويصحّ أن** يكون النّصر قد جاء بعد فترةٍ من الزّمن وبالتّالى تكون جملة « أتى » فى **هذه الحال** ذات علاقةٍ بالبعد الزّمانيّ ، وإنّ البعد الزّمانيّ فى حقّ المستيئس أشدّ **بعدًا ودلالةً** على استبطاء مجيء النّصر . وفى هذه الحال تفيد جملة « أتى » معنيين اثنين ، **البعد** الزّمانيّ والبعد المعنويّ أو النفسى . ويصحّ أن يجيء النّصر على الفور ، **وفى هذه** الحال تكون جملة « أتى » ذات علاقةٍ بالبعد المعنويّ أو النّفسيّ ، فما **شدّ بطء** بعض الأوقات وبعد بعض الغايات . فكيف إذا كانت الغاية نصر الله تعالى **الّذى** يعمل رسل الله تعالى من أجله كلّ ما استطاعوا ، والّذى يستبطئون مجيئه وربّما دنا منهم شيءٌ من اليأس أو أوشك أن يدانيهم . وهكذا يتبيّن أنّ البعد المعنويّ أو النفسيّ موجود فى كلتا الحالتين ، حالة مجيء النصّر على التّراخى أو على **الفور** . ومن البيّن أنّ ارتباط البعد النّفسيّ بالبعد الزّمانّي أشدّ من ارتباطه بالقرب الزّمانيّ .

وما أكثر الآيات القرآنيّة الّتى أشارت إلى نصر الله تعالى الّذى جاء الرّسل بعد استيئاسهم ، وإلى إجابة الله تعالى المضطرّ إذا دعاه وكشف السّوء . ومن تلك الآيات الكريمات قوله تعالى[1] : ﴿ حتّى إذا استيأس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجّي من نشاء ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ وقوله تعالى[2] : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتكم مَثَلُ الّذين خَلَوْا من قبلكم مسّتهم البأساء

---

(١) سورة يوسف ١١٠ .

(٢) سورة البقرة ٢١٤ .

والضرّاء وزُلْزِلوا حتّى يقول الرّسول والّذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إنّ نصر الله قريب ﴾ ويأخذ الوعد بالنّصر طابع الصّراحة فى الجزئيّة الكريمة التّالية : ﴿ ولا مبدّل لكلمات الله ﴾ أي ولا مغيّر لحكمه وقضائه ، وفى مثل قوله عزّ من قائل[١] : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنّهم لهم المنصورون . وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾ وفى مثل قوله تعالى[٢] :﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبيّنات فانتقمنا من الّذين أجرموا . وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين ﴾ وفى مثل قوله تعالى[٣] : ﴿ إنّا لننصر رُسُلَنا والّذين آمنوا فى الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظّالمين معذرتهم ولهم اللّعنة ولهم سوء الدّار ﴾ .

ويتأكّد الوعد بالنّصر فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة . قال تعالى : ﴿ ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ ومن البيّن مجيء جملة « جاء » الّتى تفيد القرب والوصول الحقيقيّ للأنباء . والأنباء هي الأخبار المهمّة . إنّ محمّد بن عبد الله ﷺ قد أوحى الله تعالى إليه كلاًّ من القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة المطهّرة . والمعروف أنّ الجزء الأكبر من القرآن الكريم أو الثّلث الأكبر منه فى القصص لأنّ القرآن الكريم توحيدٌ وقصصٌ وأحكام . وكلٌّ من القصص والأحكام خادمٌ لقضيّة التّوحيد . وإنّ من صميم القصص تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ ، لأنّ العاقبة للمتّقين دائمًا ، والنّصر حليف جند الله تعالى أبدا . إنّ هذه المعاني الخطيرة والأنباء المهمّة هي الّتى جاءت المصطفى ﷺ ووصلته فعلاً . وقد قال تعالى[٤] : ﴿ وكلاًّ نقصّ عليك من أنباء الرّسل ما نثبّت به فؤادك ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد كذّبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتّى أتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمة الله . ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ والمعروف أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ أحد أولى العزْم من الرّسل الخمسة وهم على التّوالى نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد صلّى الله عليهم وسلّم

---

(١) سورة الصّافّات ١٧١ ـ ١٧٣ .
(٢) سورة الرّوم ٤٧ .
(٣) سورة غافر ٥١ ، ٥٢ .
(٤) سورة هود ١٢٠ .

أجمعين . وإنّما كان هؤلاء أولى العزم من الرّسل بسبب صبرهم فى المقام الأوّل ، ويأتى الصّبر على التكّذيب والأذى على رأس قائمة أنواع الصّبر الثّلاثة ، الصّبر على البلاء ، وعلى الطّاعات ، وعن المعاصى . قال تعالى[1] : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرّسل ولا تستعجل لهم . كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعةً من نهار . بلاغٌ فهل يُهْلَك إلاّ القوم الفاسقون ﴾ .

وفى الآية الكريمة التّالية تكاد تتحوّل تسلية المصطفى ﷺ إلى ضربٍ من العتاب له ﷺ لفرط حزنه ﷺ لإعراض قومه عنه حتّى ليكاد يموت بسبب ذلك الحزن فإلى .

الآيــة رقــم (٣٥)

قال تعالى : ﴿ وإن كان كَبُرَ عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً فى الأرض أو سلّمًا فى السّماء فتأتيهم بآية . ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . فلا تكوننّ من الجاهلين ﴾ .

لله سبحانه وتعالى سنن ونواميس لا تتغيّر ولا تتبدّل ولا تحابى أحدًا . إنّ الله سبحانه وتعالى إنّما خلق الخلق ليفردوه جلّ وعلا بالعبادة ، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه وأيّد رسله بالآيات الّتى يؤمن بمثلها أقوامهم ، وزوّد العباد بالملكات الّتى تجعلهم أهلاً لحمل الأمانة والمسؤليّة ، وبيّن لهم طريق الخير ليسلكوه ، وطريق الشّرّ ليهجروه ، ووراء ذلك كلٌّ مجازىً على عمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشرّ . ولّما كان علم الله تعالى محيطًا ولا علاقة للزّمن بذلك العلم ، فقد سبق إلى علمه جلّ وعلا السّبيل الّتى سوف يسلكها الإنسان والمصير الّذى سينتهى إليه ، إلى الجنّة وقد اتّضح الصّراط المستقيم إليها ، أو إلى النّار وقد تفرّقت سبل الضّلال إليها . وإنّ

---

(١) سورة الأحقاف ٣٥ .